(إمارة التراررزة نموذجا)

محمد المختار ولد السعد
قسم التاريخ [جامعة نواكشوط]

لانـرمي من خلال هذا العـرض المقتضب عن الامـارات والمجـال الامـيري (Espace Emiral) فى موريتـانيـا الامس، الخوض فى طبيعة النظام الاميري ومدى انسجامه أو تعارضه مع الاطروحات النظرية الشائعة فى عالم اليوم بشأن أسس قيام الدولة بوجه عام وفى المجتمعات القبلية فى المناطق الهامشية بوجه خاص، لالضيق المقام عنها فحسب وإنما كذلك لكونها سبق وأن عولجت أكثر من مرة على الساحتين المغاربية والموريتانية [١]. كما لن نستعرض الاتجاهات الحالية للتحليل المجالي التى عالجها الكثير من المنظرين الجغرافيين من أمثال A.Dauphiné (١٩٨٤ : ٣٣ ـ ٤٣) و C.Raffestin و A.Turco (١٩٨٤ : ٤٥ ـ ٥٠) و J.B.garnier (١٩٧١ : ٥٥ ـ ٩٧) وغـيرهم من البـاحثين فى العلوم الاجتـماعيـة الاخرى، ولخصها R.Baduel (١٩٨٥ : ٧ـ٤٧) بشكل واف فى مقاله المعنون: «إنتاج المجال الوطني فى المغرب».

وهكذا سنترك الجانب النظري لهذين الاصطلاحين جانبا، مركزين ـ فى تناولنا للموضوع ـ على المعطيات التاريخية الملموسة فى علاقات السلطة الاميرية بمجالها وكيف تمارس سيادتها الترابية عليه. وسنتناول هذه المسألة من زاويتين متبادلتي التأثير ولهما دلالة من حيث البعد المجالي للامارات هما:

ـ تصور السلطة الاميرية لمجالها الترابي ومراقبته.

ـ نظامها الجبائي.

وسنتنـاول هاتـين النقطتـين بعد إعطاء لمحة موجزة عن قيام الامارات البيضانية ـ ولاسيما إمارة التراررزة التى تتمحور حولها هذه المحاولة ـ ومسوغات الفترة الزمنية المختارة (١٨ ـ ١٩).

ا ـ قيام الامارات:

بدأت الامارات التي توزعت جزءا هاما من المجال الترابي البيضاني فى الظهور تدريجيا ابتداء من نهاية الثلث الاول من القـرن ١٧، حيث أخـذ التفـوق العسكـري والسياسي لبعض القبائل المغفرية يتجلى بوضوح. وكان القرن ١٨ بحق قرن تبلور وتـركـز التنظيم الامـيري الـذى ظهـر بعـد عملية مخاض تاريخي عسير تولدت عنه فى الربع الاخير من القرن ١٧ «حـرب شُرْبُبّـه» مابـين ١٦٧١ ـ ١٦٧٧ (السعـد: ١٩٨٦) فى الجنـوب الغـربي المـوريتاني بين الزعامات الحربية المغفرية وتحـالف القبـائـل الـزاوية بقيادة تشمشه، فأفضت ـ فى جملة ما أفضت إليه ـ إلى قيام الامارات المغفرية [٢] أو المتمغفرة فى الـتراررزة والـبراكنـة ثم فى آدرار وتكانت، فيما بعد. وهذا التنظيم شبه المركزي يختلف عن التنظيم السياسي القبلي الداخلي السـائـد على مستوى كل قبيلة حربيـة أو زاويـة بجمعه تحت سلطة سلالة أميرية واحدة مجموعة القبائل الحربية والزاوية والتـابعـة فى المنـاطق التى قامت فيهـا تلك الامارات، بينما استمر تنظيم شمال وشرقي البلاد على الطريقة القبلية القديمة. فأولاد امبـارك ـ مثـلا ـ الـذين تمركـزوا فى النهـاية فى الحوض شكلوا مشيخات متصارعة أهمها مشيخة أهل محمد ازناقى ولد الـذيب ومشيخـة أهـل اوديكه الاقرع ولد انبيكه بوقرن [٣]، ولم يؤسسوا إمارة موحدة رغم فروسيتهم الاسطورية وقوتهم الحربية والاقتصادية وذيوع صيتهم فى تلك الفترة. ولعل من أسباب ذلك كون البلاد قد توزعت إلى منطقتين متميزتين هما:

ـ المنطقة الواقعة شرقي الوادي الابيض (عورعول في الخطوط) التي عجلت عناصر السكان فيها باستمرار جراء الهجرات المستمرة ؛ فلم تتمتع ـ بالتالي ـ بالاستقرار الضروري لقيام تنظيم سياسي شبه مركزي كالتنظيم الأميري.

ـ أما المنطقة الاخرى التي تضم منطقة القبلة وآدرار وتكانت فلم تتغير فيها الخريطة السكانية منذ القرن ١٧، فحصل استقرار سياسي نسبي للبنى الأميرية جراء عدم وجود هجرات هامة وبروز تفوق سياسي أسري داخل الزعامة الحربية.

وقد توطدت سلطة تلك الامارات الاربع تدريجيا وعرفت أوج ازدهارها السياسي والاقتصادي والاجتماعي في القرن ١٨ والنصف الاول من القرن ١٩ ولاسيما بالنسبة للترارزة وأهل يحي بن عثمان، الذين استطاعوا بفضل تماسكهم وثروتهم أن يحافظوا على قوتهم ويوسعوا نفوذهم ويشيد كل منهم إمارة موحدة مستقرة عموما، قبل أن تعرف هاتان الامارتان صراعات داخلية في القرن ١٩.

فإمارة أهل يحي بن عثمان في آدرار [٤] قد ظهرت بوادرها مع عبد الرحمن بن حمه قبل أن ينتزعها منه عثمان ولد لفظيل في منتصف القرن ١٨ وتستقر في ذريته بعد انتهاء الصراع بين أخيه ابراهيم الاقرع وابنه سيدى احمد لصالح هذا الاخير الذى سيلعب دورا مهما في إرساء السلطة الاميرية. ورغم الصراعات الداخلية التي ستعرفها هذه الامارة خلال القرن ١٩، فقد ظلت موحدة وقوية نسبيا وتحاول من حين لآخر توسيع نفوذها داخليا وخارجيا وإحكام قبضتها على مجالها الحيوي.

أما البراكنة [٥] فقد انقسموا بسرعة في القرن ١٨ بعد وفاة أحمد بن هيبه بن نغماش سنة ١٧٦٢ وما تلاها من صراعات آلت إلى انتقال الزعامة عمليا من أولاد نغماش إلى أولاد السيد ابتداء من وفاة المختار ولد آغريش وتولى ابنه محمد مقاليد الامارة سنة ١٧٦٦ (تفراك المحصر).

وقد أدت تلك الانقسامات إلى إضعاف مركز إمارتهم التي كانت ـ حسب التقاليد المحلية ـ على درجة كبيرة من القوة في النصف الاول من ذلك القرن، وحدت من تألقها السياسي واتساعها الترابي.

وحدث الشيء نفسه ـ تقريبا ـ بالنسبة لإدوعيش أحفاد اللمتونيين الذين أسسوا الامارة غير الحسانية «المتمغفرة» الوحيدة التي عرفتها البلاد والتي اتخذت من منطقة تكانت مركزا لها [٦]. وعانى إدوعيش طويلا من اشتراكهم لمجال حيوي مع جيرانهم الشرقيين أولاد امبارك، تلك المعاناة التي تجسدت في محاولات فرض هيمنة لم يتخلصوا منها نهائيا إلا بعد سلسلة من الصراعات والحروب الدامية خلال القرن ١٨ في عهدي بكار ولد اعمر ولد احمد بن خونه (ت: ١٧٦١) وابنه محمد شين (ت. ١٧٨٨).

فلم تظهر هذه الامارة كقوة سياسية مستقلة إلا في عهد محمد شين (١٧٦١ ـ ١٧٨٨)، ولاسيما بعد انتصاره في حصار احنيكات بغداد (١٢ كلم جنوب شرقي تجكجة) سنة ١٧٧٨ على تحالف مغفري يضم أولاد امبارك وأولاد الناصر والبراكنة وأولاد غيلان. . . ، ذلك الانتصار الذى لم يعزز مركزها السياسي والعسكري فحسب، وإنما عززها ديموغرافيا حيث انضم إلى إدوعيش العديد من الاتباع من القبائل الاخرى (سارة محمد شين) بما في ذلك بعض القبائل الحسانية (أولاد طلحة مثلا).

إلا أنه ماكاد عهد احمد بن محمد شين ينتهي سنة ١٨٢١ حتى دب الانقسام الشديد في صفوف تلك الامارة وتفاقم إلى أن انقسمت إلى فرعين متميزين لكل منهما مجاله الترابي ونفوذه السياسي، حيث استأثر «أبكاك» بتكانب ـ مهد الامارة ـ واستقر «اشراتيت» في منطقة العصابة المجاورة؛ ولو كانت السلطة الاميرية ورموزها قد بقيت لابكاك بقيادة اسويد احمد وابنه بكار ـ من بعده ـ حتى الاحتلال الاستعماري.

ولن نستعرض في هذا المدخل الموجز تسلسل الاحداث السياسية على مستوى كل إمارة ولا علاقتها بمجالها بل

لم يكن اختيارنا للفترة الممتدة من بداية القرن ١٨ إلى نهاية القرن ١٩ بحكم ألفتنا بمصادر تلك الفترة (المحلية منها والاجنبية) فحسب، وإنما كذلك لكونها تمثل ـ كما أسلفنا ـ فترة ترسخ النظام الاميري في البلاد عموما وفي المنطقة المدروسة بوجه خاص (الترارزة). فبداية هذه الفترة ترمز لمنعرج تاريخي هام يتمثل في انهيار محاولة حركة الزوايا الاصلاحية بقيادة ناصر الدين [٧] وتخليهم النهائي عن حمل السلاح والطمع المعلن في السلطة السياسية وترسخ سلطة أمراء بني حسان، في حين ترمز نهايتها لانهيار تلك السلطة على يد الاستعمار الفرنسي وفي مقدمتها سلطة الترارزة التي اخترنا كنموذج لهذه الدراسة لجملة اعتبارات منها:

ـ أنها من أولى الامارات التي عرفتها البلاد ومن أكثرها تألقا واتساع نفوذ في الفترة المدروسة.

ـ خصوصيتها الجيوبولتيكية بوصفها بوابة البلاد البحرية (تمتد حوالي ٥٠٠ كلم على المحيط الاطلسي وأكثر من ٢٠٠ كلم على النهر) وتشترك في حدود مع مختلف الامارات البيضانية وثلاث من الممالك السنغالية على الضفة اليسرى للنهر.

ـ معرفتي بها أكثر من غيرها، «والمؤرخ ـ كما يقول ابروديل (١٩٦٩: ١٩١) ـ يفتح على الماضي أولا وقبل كل شيء، الباب الذي يعرف أكثر من غيره».

II – إمارة الترارزة ومجالها الاميري:

تشغل إمارة الترارزة الزاوية الجنوبية الغربية من الاراضي الموريتانية الحالية والجزء الغربي من منطقة القبلة [٨] التي أصبحت ـ على ما يبدو ـ منذ القرن ١٨ [٩] تحمل كمرادف لها إسم الترارزة، نسبة لتروز بن هداج بن عمران بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان، جد المجموعة الحسانية التي ظهرت بوادر سيطرتها على هذه المنطقة كقوة سياسية مستقلة نسبيا منذ نهاية الثلث الاول من القرن ١٧ مع أحمد بن دامان بن عزوز بن مسعود بن موسى بن تروز، الذي برز كزعيم سياسي وقائد عسكري في حرب انتيتام (٣٠ ـ ١٦٣١) التي أزاح فيها نفوذ أولاد رزك عن المنطقة. وقد استقرت الامارة في ذريته من بعده، دون إخوته وأبناء عمومته (راجع الشجرة)، ولاسيما في ذرية حفيده اعل شنظوره بن هدى ابن أحمد بن دامان (١٧٠٣ ـ ١٧٢٧).

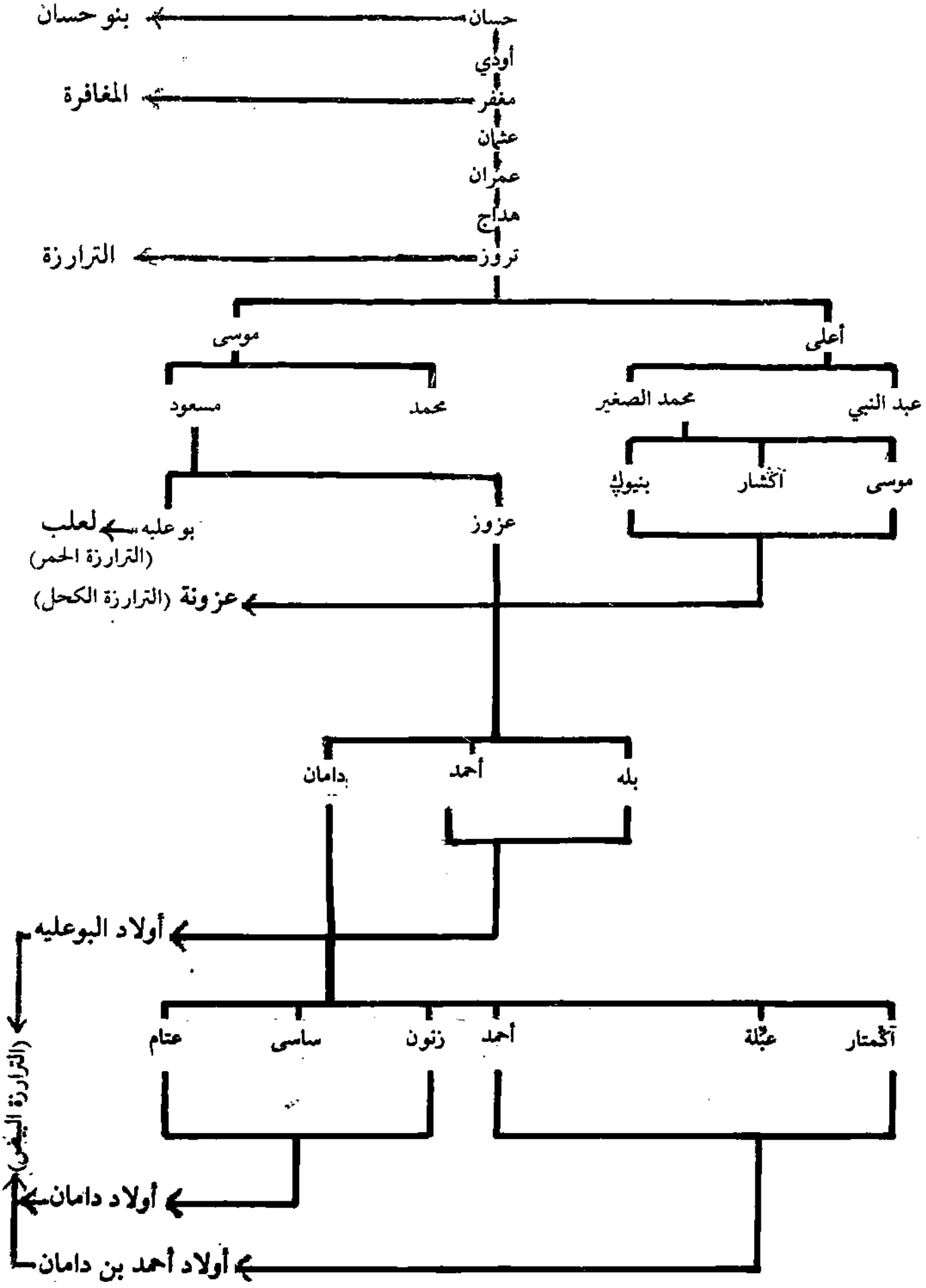
حسان
بنو حسان
أودي
مغفر
المغافرة
عثمان
عمران
هداج
تروز
الترارزة
أعلى
موسى
عبد النبي
محمد الصغير
محمد
مسعود
موسى
أكشار
بنيوك
لعلب
بوعليه
(الترارزة الحمر)
عزوز
عزونة (الترارزة الكحل)
بله
أحمد
دامان
أولاد البوعليه
(الترارزة البيض)
آكمتار
عبّلة
أحمد
زنون
ساسي
عتام
أولاد دامان
أولاد أحمد بن دامان

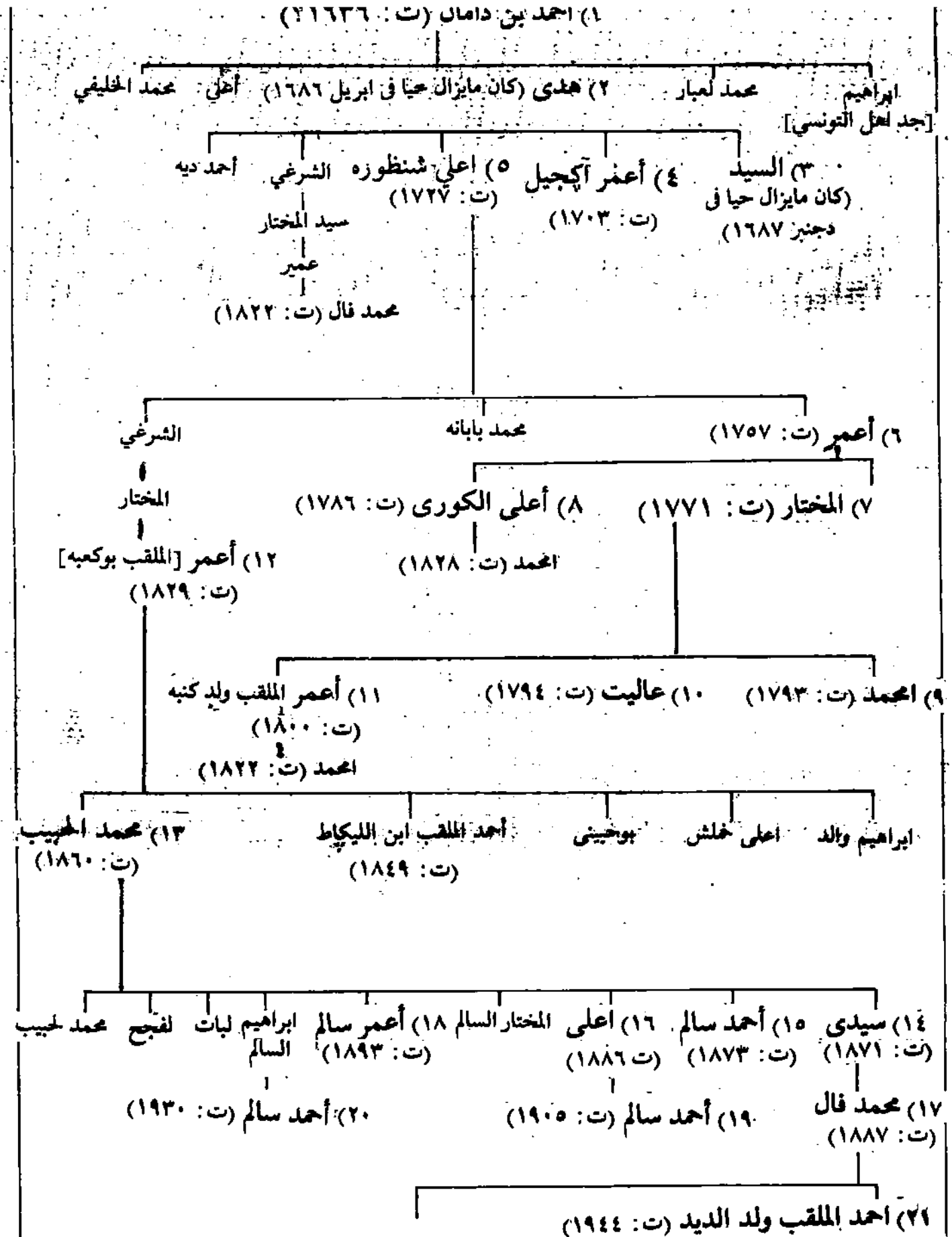

شجرة أمراء الترارزة حسب تسلسلهم التاريخي من القرن ١٧

زوايا ـ تابعون ـ أرقاء) ووزنها الديموغرافي والاقتصادي والسياسي. فهناك في قمة الهرم الاجتماعي المجموعة الحربية التروزية التي تحتكر العنف والسلطة السياسية منذ نهاية حرب شربيه ولا تضطلع بدور إنتاجي في المجال الاقتصادي مما جعل اعتمادها في توفير وسائل العيش على الغزو والمغارم. وتليها مجموعة القبائل الزاوية ذات الاصول الاجتماعية المختلفة التي تخصصت في الشؤون الثقافية والدينية ـ بما في ذلك «إدارة عالم الغيب» ـ في مناخ طبيعي واجتماعي مليىء بالمخاطر يتحكم فيه «ثالوث الغزو ـ الجفاف ـ الوباء» (ولد الشيخ: ١٩٨٥ ـ ص ٢٢) وممارسة النشاطات الاقتصادية المختلفة من تنمية حيوانية، وزراعة وتجارة...

أما الفئة الثالثة فهي الاتباع المؤلفون من ازناگه المتخصصين في تربية المواشي التي عليها الاعتماد الاساسي لحياة سكان الامارة، والمجموعة الحرفية من مطربين وصناع، والموالي والارقاء في نهاية السلم الاجتماعي.

وهذا التراتب الاجتماعي وما يتولد عنه من علاقات اجتماعية بين مختلف مكوناته وتداخل في الحقوق والاختصاصات، يجد التعبير عنه على مستوى مجال الامارة الترابي، بل انه القناة التي تمارس من خلالها السلطة الاميرية سلطتها على ذلك المجال. وهنا يصدق ـ مرة أخرى ـ رأي هـ. لفيفر Lefèbvre القائل بأن «المجال يتضمن روابط اجتماعية» (١٩٧٣ : ٣٦). وتتأكد تلك المقولة النظرية في حالتنا المحددة، لأننا إذا أخذنا ميدان الملكية العقارية ـ مثلا ـ نجد بأن «التنظيم العقاري في ظل الامارات يعكس بصورة صادقة البنية الاجتماعية والسياسية للمجتمع البيضاني» (P.Bonte : ١٩٨٣ : ٣).

فإذا كانت الملكية العقارية للأراضي ـ زراعية كانت أو رعوية ـ وما تدره في فوائد مادية ومعنوية يستأثر بها الزوايا بحكم ارتباطهم بالأرض ودورهم في تنظيم الانتاج، فإن لبنى حسان ـ ولاسيما أمرائهم ـ حقوقا معلومة على أراضي الامارة متأتية أساسا من سيادتهم السياسية وهيمنتهم العسكرية والدور المنوط بهم ـ نظريا على الاقل ـ في حماية الفئات الاجتماعية المقيمة في حيزهم الجغرافي وليست متأتية من أية ملكية عقارية فعلية للاراضي.

أما الاتباع الذين يشكلون القوى العاملة الاساسية في هذا المجتمع، فليس لهم وجود قبلي مستقل ولاملكية للأراضي وإنما يحتمون بإحدى الارستوقراطيتين [الحسانية أو الزاوية] ويستفيدون تبعا لذلك ـ ويفيدون ـ من الارض.

ويزداد الأمر تعقيدا إذا عرفنا بأن مجال الامارة الترابي غير محدد تحديدا دقيقا وقارا بحكم طبيعة النظام الأميري نفسه الذي تعتبر الفروسية وما يلازمها من كر وفر إحدى مقوماته الاساسية من جهة، وسيادة نمط حياة البداوة الظاعنة في موريتانيا الامس وما يصاحبها من حركة مجالية واسعة لتذليل الضغوط الايكولوجية في فضاء جغرافي واسع وعلى مستوى مجتمع قبلي تسود فيه ملكية جماعية هشة قنونيا ـ ولاسيما في المناطق الرعوية ـ للاراضي، من جهة أخرى. وترتب على هذه الوضعية وجود أنماط عقارية وترابية معقدة ومتحركة، وتداخل كبير بين حقوق الاستغلال والروابط الاجتماعية بحكم الدور المتميز للروابط الدموية ـ وغيرها من روابط الولاء ـ في هذا النوع من المجتمعات.

وأدت هذه الوضعية وما عرفته البلاد من عدم اعتناء بالتوثيق التاريخي، الذي تناولنا أسبابه بشيىء من التفصيل في مكان آخر [السعد: ١٩٨٧]، إلى غياب التحديد القانوني لمجال الامارات الترابي.

وإذا أضفنا إلى العوامل المتقدمة عوامل أخرى متعلقة بطبيعة «الدولة الاميرية» ومحيطها الاجتماعي والسياسي، لأدركنا صعوبة تحديد مجال لامارة الترارزة في الفترة المدروسة. ومن أهم تلك العوامل:

أ) التعارض الوظيفي بين الزوايا وبني حسان الذي أدى ـ من بين أمور أخرى ـ إلى تعدد أقطاب النفوذ السياسي وأجهزة الرقابة الاجتماعية على ساحة الامارة، وإلى الحد من تبلور أجهزة سياسية قادرة على جذب مختلف أشكال الولاء ومركزتها حول السلطة الأميرية.

ج) تحكم بنى القرابة على مستوى هذا المجتمع وغياب وعي سياسي ومدني قادر على تجاوزها، مما نجم عنه:

- عدم استبدال القاعدة القبلية بجهاز من الوكلاء والجنود النظاميين على مستوى السلطة الأميرية من شأنه أن يعزز مركزتها ونفوذها السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

- استمرار التنظيم العشائري وطرق تسييره لشؤون المجموعات القبلية على مستوى مجتمع الامارة.

وقد تكون سيادة هذا التنظيم أحد عوامل ما أسماه الهرماسي [١٩٨٤ : ٢٦] فى حديثه عن علاقة القبيلة بالسلطة المركزية فى تونس والجزائر والمغرب بـ«الانغلاق المؤسسي» والذى يتجلى بوضوح أكثر فى موريتانيا بحكم قدرة الوحدات القبلية فى هذه المنطقة الصحراوية القاحلة المترامية الاطراف على الاستقلال عن السلطة الاميرية «لأن الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تتحكم فيها دولة» كما يقول صاحب المقدمة [ابن خلدون، ١٩٨٤ : ج ١ ص ٢١٤] ولامكانية «استغناء بعض أهل البلد عن بعض فى الامور الجامعة»، كما يقرر الشيخ محمد المامى فى معرض حديثه عن المداراة فى المنطقة بوجه عام وفى منطقة الترارزة بوجه خاص [كتاب البادية: ٥٧ ـ ٥٨].

ومن خلال ماتقدم، يحق للقارىء أن يتساءل عن إمكانية الحديث عن مجال ترابي لامارة الترارزة، وبالذات عن تصور السلطة الاميرية لذلك المجال.

١) السلطة الاميرية فى الترارزة وتصورها لمجالها:

رأينا، فيما تقدم، أنه من الصعوبة بمكان تحديد مجال ترابي لامارة الترارزة تحديدا دقيقا، لأنه من المفارقة الحديث عن إقليم ذى حدود طبيعية وسياسية واضحة المعالم فى منطقة شبه صحراوية وفى مجتمع قبلي يرتبط بالعصبية أكثر من ارتباطه بالأرض بحكم ظروف عيشه التى تفرض عليه حياة انتجاع دائمة تحول دون استيطانه لمكان دون سواه، ولم يعرف بداية العمران الحضري إلا فى القرن العشرين.

وهذه الحركية المجالية التى يستوى فيها جميع سكان الامارة، بمن فيهم مركز السلطة الاميرية المتمثل فى «المحصر» [١٠]، تحد من جدوائية ممارسة الرقابة على مجال متحرك وتزيد من شأنها على البشر.

وبما أن «الاقليم هو فى الوقت نفسه إنتاج إيديولوجي وحيز ترابي تستملكه الدولة بطريقة تعبر عن نمط معين من التسيير» (C.Raffestin et A.Turco,1984:48)، فإن تصور المجال ومراقبته من قبل السلطة الأميرية يأخذ بعدا بشريا ويتجسد عبر طرق معينة تتلاءم ونمط حياة السكان وعلاقاتهم الاجتماعية. والمتتبع لتاريخ إمارة الترارزة فى القرنين ١٨ و١٩، يجد أكثر من دليل تاريخي وعملي على وعي السلطة الاميرية بمجالها ومراقبتها له مراقبة تنبع من خصائصها الاجتماعية والسياسية ومحيطها الايكولوجي، وتتناسب طرديا مع درجة قوتها وضعفها وقرب هذا الجزء من المجال أو بعده من مركز السلطة [المحصر الاميري]. ولم يكن هذا الوعي بالمجال يتم بالنظر إلى الاخر [الاجنبي على المنطقة] فحسب وإنما على الصعيد الداخلي كذلك.

فقد رافق مرحلة ميلاد الامارة شعور بالمجال وضرورة حمايته من الاخرين، كما كانت الحال بالنسبة لأحمد بن دامان فى نهاية الثلث الأول من القرن ١٧ مع أوديكه الأقرع، وسيدى ابراهيم العروصي ومحلته وغيرهما [١١]، ولأمراء الترارزة من بعده الذين سعوا إلى توسيع مجالهم وإعطاء مضمون إقليمي محدد نسبيا لسلطتهم السياسية سواء فى تعاملهم مع جيرانهم أو مع سكان منطقة الترارزة نفسها.

وسنحاول البرهنة على ماذهبنا إليه بإعطاء أمثلة ملموسة عن ذلك الوعي الواضح لدى الامراء بسلطتهم وما تخول لهم من صلاحيات على الارض والبشر، وما تفرض عليهم من واجبات. ونقتصر فى هذا السياق على مظاهر من ممارسة السيادة السياسية على المجال الترابي، والحماية وحفظ الامن، وجباية الضرائب.

١-١) السيادة الترابية وتأكيدها خارجيا:

اقتصر مجال نفوذ الترارزة خلال القرن ١٧ والثلث الاول من القرن ١٨ على المنطقة الساحلية الممتدة من آركّين شمالا إلى مصب نهل السنغال جنوبا، ومن المحيط الاطلسي غربا إلى آوكيره شرقا، ومن نهر السنغال جنوبا إلى آمكرز شمالا، وعانوا من ضغط جيرانهم الشرقيين [البراكنة] وتحرشات جيرانهم فى الشمال [أولاد اداليم خاصة] فى وقت لم تأخذ فيه بعد خريطة الوجود البشري والنفوذ السياسي لبنى حسان شكلها النهائي فى المنطقة، وإن كانت ملامحها العامة قد تحددت.

وحرص أمراء الترارزة منذ البداية على ترسيخ سيادتهم على الساحل الاطلسي كمجال حيوي أساسي بالنسبة لهم فى وقت تضاعفت فيه أهميته الاستراتيجية بشكل لم يسبق له مثيل وأصبح مصدر إغراء مادي ومعنوي كبير بفعل ما عرف من صراع بين قوى أوربية مختلفة [هولنديين - بروسيين - انجليز - فرنسيين] لاحتكار تجارة العلك بالمنطقة إلى حد جعل آندرى دلكور (A.Delcourt)، ينعت ذلك الصراع «بحروب العلك» (١٩٥٢: ص ١٧٩ وما بعدها).

وظلت المنطقة الساحلية مركز ثقلهم السياسي منذ عهد أحمد بن دامان حتى ارتبط إسمهم بها، فلقبوا «عرب ازبار» و«شيوخ الساحل». وأخذت المنطقة إسمهم («بلاد الترارزة» - «بحر أولاد ازناكْنْة») بل وأسماء بعض أمرائهم أحيانا مثل «القطر الشنظوري» عند الشيخ محمد المامى (١٨٧٥) فى «جمان كتاب البادية» (ص: ٢٢) و«إدخالات البحر فى الغدير» (ص ٣).

كما حرصوا على استمرار وتنويع التبادل فيها حتى نهاية الوجود الانجليزى بالمنطقة فى ١٨٥٧، للاستفادة من تناقضات وتنافس القوى الاوربية على السواحل وفى نهر السينغال، وأبرموا الاتفاقيات الكثيرة لذلك الغرض بل إن الدخول فى عملية التبادل نفسها فى المحطات الواقعة فى مجال نفوذهم الترابي كانت مرهونة بالتفاهم المسبق معهم على حجم وطرق تسديد عائداتهم العرفية (آمكبل Coutumes) وهداياهم Présents.

فقد أقاموا علاقات وثيقة مع الهولنديين [والبر وسيين] فى اركّين وأمنوا لهم التبادل فيه [١٢]. وقد لايكون هذا التوغل الكبير مع الشاطىء شمالا بمنأى عن صراعاتهم المسلحة مع أولاد اداليم [١٣] الذين تدخل منطقة آركّين فى مجالهم الجغرافي التقليدي.

وبعد انتهاء الوجود الهولندي - البر وسي فى المنطقة، آثر الترارزة التبادل مع الانجليز على ساحل بورتانديك [«جور» أو «اجريده» محليا] الواقع على بعد ٣٠ كلم شمال غربي نواكشوط الحالية، وقننوا علاقاتهم مع الفرنسيين المتمركزين فى سنت لويس مستفيدين من التنافس بين هاتين القوتين الاوربيتين.

وقد استطاع اعلي شنظورة بوجه خاص - الذى يعتبر المنظم الفعلي للامارة - ترسيخ سلطة الامارة داخليا، وإزاحة الضغط عنها وتوسيع مجالها خارجيا.

فعلى المستوى الداخلي وطد وحدة الصف التروزي وكسب القبائل الزاوية بإشراكها فى السلطة كنوع من التشريع العملي لسلطته بوصفها الناطقة باسم الدين الاسلامي والمؤولة له فى المجتمع البيضاني. فهكذا عين ابن رازكّه العلوي مستشارا سياسيا له، والمختار بن أجفغ موسى اليعقوبي قاضيا له من الكونفدرالية الشمشوية التى واجهت أباه فى حرب شربيه وطلب منه أن يختار لتشمشه الجهة التى ترغب فى استيطانها من مجال الامارة.

وتقول الرواية [١٤] أن هذا القاضى اختار لقومه ولمركز السلطة الاميرية ناحية إكْيدى التى تتوسط المجال الترابي الاميري وقتها، وقد لايكون ذلك «الاختيار» اعتباطيا إذا عرفنا بأن المنطقة المذكورة تكتظ بأشجار القتاد التى يلتقط منها العلك الذى شكل القاعدة الاقتصادية للتجارة الاطلسية فى عموم المنطقة الممتدة من الرأس الابيض شمالا إلى الرأس الاخضر جنوبا من القرن ١٨ وحتى سبعينات القرن ١٩، فضلا عن كونها منطقة رعوية (وزراعية إلى حد ما) هامة لوفرة المياه والغطاء النباتى المتنوع وجودة التربة. غير أن المهم فى المسألة هو أنها قدمت فى صيغة اقطاع من هذا الامر لقاضيه الذى

الامراء الذين لم تكن لهم إطلاقا ـ كما أسلفنا ـ ملكية عقارية وسياسية مشرعة على الارض. فلم نعثر في ما اطلعنا عليه من وثائق مختلفة المصادر والاغراض ومن تقاليد مروية احتفظت بها الذاكرة الجماعية، ما يوحي بأن هذا النوع من التملك كان معروفا في المنطقة باستثناء ما ذكره اليدالي عن اقتطاع القاضي عثمان (ت: ١٦٧٤) ـ الامام الثالث من أئمة الزوايا في حرب شربيه ـ حرثا للفقيه مينحنه بن مودي مالك (ت: ١٧٣٧) اعتمادا على رواية هذا الاخير، حين قال: «... وسمعت من شيخنا رحمه الله تعالى أن أحل أملاكه عنده الحرث الذي أقطعه الامام القاضي عثمان...» (رسالة اللفعة، ص ١٥).

ومما يدعم رأينا هذا أن المشرعين في هذا البلد (الفقهاء) يعتبرون ـ من ناحية فقهية محضة ـ أن الاقطاع من اختصاص السلطان الاعظم (أمير المؤمنين) ولا يحق لمن هو دونه في المرتبة من الامراء والقواد والقضاة ممارسته، فضلا عن كوننا لانجد له ذكرا في طرق تملك الارض والاختصاص بها في هذه البلاد تلك الطرق المتمثلة في:

ـ إحياء الارض الموات بأي وجه من وجوه الاحياء (السكني، حفر الآبار، الزراعة...)

ـ الارث.

ـ الشراء

ـ الهبة

ـ الاحتلال بالقوة، ولوكان أمرا نادر الوقوع بحكم طبيعة الزوايا السلمية الذين يختصون عادة بملكية الارض في هذا المجتمع.

وعليه فإن رواية ابن عبد الله هذه، التي اعتمد فيها على عدة روايات شفهية، يطغى مضمونها الايديولوجي على مضمونها الواقعي، فاستيطان المجموعة الشمشوية لمنطقة إكْيدى (القرن ٨ هـ/ ١٤م) سابق تاريخيا لوصول الترارزة إليها، وتجاور المجموعتين بها تم قبل قيام إمارة الترارزة فبالاحرى عهد اعلى شنظورة. وباستطاعتنا أن نذهب أبعد من ذلك ونقول بأن الخريطة البشرية في منطقة الترارزة لم تتغير منذ القرن ١٧ بحيث ماتزال المجموعات القبلية تتركز في الجهات التي ذكرت بها أنذاك، فالرواية، إذن، هي من باب التأسيس الايديولوجي لحادث عارض استنادا على بعض الحقائق التاريخية الواقعية التي قد تكون له صلة بها.

أما على الصعيد الخارجي فقد قام اعلى شنظورة بحملات ضد أولاد اديلم ثأرا لأخيه اعمر آكْجيل [ت: ١٧٠٣]، وأبرم أول اتفاقية رسمية بين الترارزة والفرنسيين في ٢٩ يوليو ١٧١٧ يمنحهم فيها حق التبادل على سواحل المنطقة الممتدة من تانيت شمالا (١٨ـ١٤ درجة شرقا) إلى مصب نهر السينغال جنوبا (١٦ ٣٠ درجة شمالا)، مع الاحتفاظ عمليا بعلاقاته التفضيلية مع الهولنديين.

وتوجه إلى المغرب في ١٧٢٠ صحبة وفد من قومه يضم على الخصوص مستشاره ابن رازكَه لطلب الدعم العسكري من السلطان العلوي مولاي اسماعيل (١٦٧٢ـ١٧٢٧) في وقت اشتد عليه فيه الضغط الخارجي ولاسيما من قبل جيرانه البركنيين، فعاد في نهاية ١٧٢٠ بمحلة لم تحدد المصادر ما إذا كانت من قبل السلطان نفسه أو من قبل تكنة وادي نون بناء على طلب منه، وهو المرجح عندنا [١٥]. وقد أغار بهذه المحلة على البراكنة في ٢٩ جمادى الاولى ١١٣٣هـ/ ٢٨ مارس ١٧٢١ وتمكن بعد سلسلة من المعارك من التغلب عليهم وإبعادهم إلى تزاكَرت في آقطوط مبعدا بذلك الضغط عن مجاله الحيوي ومخالفا الظروف لتوسيعه في اتجاه الشرق. كما قام بحملات في والو وفوته والبراكنة في محاولة لبسط نفوذه على تلك الكيانات السياسية المجاورة عن طريق دعم هذا الجناح أو ذاك من الاجنحة المتصارعة على السلطة [١٦] فيها وما يتولد عن ذلك من نفوذ سياسي ومادي في مجال تلك الكيانات سياسيا وترابيا.

وهكذا نرى أن طغيان النزعة الحربية على جهاز السلطة الاميرية قد أعطى للغزو وأداته العسكرية [الجيش] بعدا محاليا هاما بوصفها أداتين أساسيتين لتوسيع المجال وإحكام القبضة عليه

وقام ابنه اعمر (١٧٢٧ ـ ١٧٥٧) بتوطيد مكاسبه حيث أكدت الشهادات التاريخية المحلية والاجنبية رسوخ سيادته السياسية على مجال الامارة، كما يشهد على ذلك إفشاله للاتفاق الذى أبرمه أحد وجهاء قومه سنة ١٧٤٣ مع الفرنسيين فى سنت الويس بشأن إقامة محطة تبادل فى المنطقة المتأخمة «للحدود» مع البراكنة [١٧] لما فى ذلك التصرف من نيل من سيادته الترابية ومصداقيته السياسية لدى الانجليز الذين تربطه بهم علاقات تجارية متميزة فى بورتانديك، ولما قد يعود به وجود تلك المحطة على خصومه البراكنة من فوائد، لوجودها على مشارف بلادهم.

ودشن خلفه المختار ولد أعمر (١٧٥٧ ـ ١٧٧١) عهده بتوسيع مجال الترارزة الترابي فى اتجاه الشمال الشرقي بطرده أولاد احمد إكْيدى البركنيين من مناطق من آوكار لم يصل إليها نفوذ الامارة من قبل مما جعل زفانه يخلدها كإنجاز عظيم لم يسبق إليه [١٨]. وتفيد التقاليد المروية [١٩] أن أمه فاطمة الطفيلة بنت الشرغي ولد هدى المشهورة بحنكتها السياسية سألته بعد عودته من إحدى معاركه ضد البراكنة لتختبر نضجه ـ وهو مايزال وقتها فتى ـ فيم فكر أثناء المعركة؟ فأجابها باقتضاب قائلا: «رى انكْليسيس». وهذا الجواب المقتضب يحمل أكثر من دلالة على أحد مكامن الصراع التروزي ـ البركني الاساسية، وعلى وعي هذا الامير الشاب بمجاله الحيوي وضرورة حمايته. فانتصار البراكنة عليه يعنى سيطرتهم على الساحل الاطلسي وما يدره من فوائد مادية ومعنوية هامة وقتها بالنسبة لتلك الكيانات السياسية الوليدة (الامارات)، وخاصة فوائد العلاقات مع الانجليز الذين نالوا ولاء الترارزة بفضل كثرة الهدايا التى يقدمونها لهم، وارتفاع ثمن شرائهم للعلك، وجودة بضائعهم.

وقد ترسخ الوعي بالمجال وضرورة صيانته وتوسيع نطاقه سياسيا وترابيا مع خلفائه من أمراء الترارزة ولاسيما أمراء القرن ١٩ الذين أخذ مجال الإمارة الترابي والسياسي أقصى اتساع له فى عهدهم. وبما أن المقام لايتسع فى مقال كهذا لتتبع تلك الظاهرة لديهم تتبعا اكرونولوجيا، فإننا سنعمد إلى إعطاء أمثلة تؤكد ما ذهبنا إليه خلال القرن ١٩، مركزين على الجوانب المتعلقة بحماية المجال بوصفها درجة متقدمة من تصوره.

فاعمر ولد المختار (١٨٠٠ ـ ١٨٢٩)، أول أمراء الفرع الاصغر من أهل اعلى شنظوره، ناضل بما أوتى من قوة لحماية مجال الامارة الترابي والسياسي، وعمل على تأكيد سلطته ـ داخليا وخارجيا ـ عليه حتى تم له ما أراد قبل وفاته بسنة. وسنقتصر فى هذا النطاق على جهوده الخارجية.

فقد وقف فى وجه الاستعمار الزراعي فى والو [٢٠] لابحكمه تحديا لنفوذه السياسي على تلك المملكة الولفية فحسب، وإنما كذلك لسيادته الترابية على «دكّانه» مركز المستعمرة الزراعية حيث يقول بهذا الخصوص فى رسالة له وصلت الوالى الفرنسي LE Coupé فى ١٤ مايو ١٨٢١ ما نصه: «. . . ودكّانه قرية لأهل محمد ببانه [٢١] لاتباع ولاتعار» (A.N.S:9G1/1821).

وتؤكد رسالة له إلى نفس الوالى أثناء المفاوضات التى سبقت اتفاقية ٧ يونيو ١٨٢١ والتى أنهت حرب الاستعمار الزراعي بين الطرفين، وعيه بمجاله الترابي والبشري وحرصه على الدفاع عنه حيث يقول: «. . . وليترك عنه [الوالى] شمامه [والو] فليست فى شيىء من أخبارهم [الفرنسيين]، وأن أعمر يضمن له من فى أرضه من الناس وأنه يضمن له هو [لكوبى] أيضا من فى أرضه من كل شيىء. . .» (A.N.S:9G1/Pièce7).

وبقدر ما أعرب عن استيائه الشديد من توقيع اتفاقيتي ٨ مايو و١٥ نوفمبر ١٨١٩ مع ملك و و واحمد بن اعلى الكورى بشأن والو ومشروع الاستعمار الزراعي وناضل ضدهما، بقدرما احتج بقوة كذلك على توقيع اتفاقية ٧ يونيو ١٨٢١ السرية مع محمد فال بن عمير بشأن إنهاء تبادل العلك مع الانجليز فى بورتانديك ومركزته على لنهر معتبرا كل ذلك

وقد ترسخ ذلك الوجود الفرنسي تحت إمرة الحاج عمر الفوتي الذي تحالف مع أحد أبرز أعيان الترارزة في عهده وهو محمد الحبيب [١٨٤٠ - ١٨٧٠] الذي بدأت إمارة الترارزة في عهده تتوج نفوذها السياسي واتساعها المجالي. فلم يكتف بالدفاع عن مجال الامارة الترابي والبشري الخاص وإنما تدخل على أكثر من صعيد لتوسيع ذلك المجال سياسيا وإيديولوجيا شمال وجنوب النهر بحيث هيمن سياسيا على جيرانه المباشرين على الضفتين. ومن هنا كانت خلافاته وصداماته المسلحة المتكررة مع الادارة الفرنسية في سنت الويس المتطلعة - هي الاخرى - للهيمنة على المنطقة. وكان من أهم المواجهات المسلحة التي خاض ضدهم:

- الصراع على الملك بين فرابندا Fara Penda وخار في كزارى KHärfi Xari في ١٨٣١ [بيكر باري: ١٩٨٤، ص ٢٥٤].

- حرب زواجه من چنبت Ndyombot وصية عرش والو الذي رأت فيه الادارة الفرنسية في سنت الويس «حدثا ستكون له نتائج بالغة الخطورة. . . . لأنه سيمكن يوما ما من تتويج أحد ملوك البيضان ملكا شرعيا لهذا البلد - ذلك التتويج القائم الآن عمليا - ومن تخريب القاعدة الاساسية التي ترتكز عليها المستعمرة والمتمثلة في حياد الضفة اليسرى أثناء نزاعاتنا المتكررة مع البيضان. . .» (AN.SOM: Sénégal I,15C 1833) ؛ تلك الحرب التي امتدت من ١٨٣٣ - ١٨٣٥ وأخذت أبعادا دولية حيث فجرت الصراع من جديد بين فرنسا وانجلترا على ساحل بورتانديك جراء الحصار الذي فرضته فرنسا ضد الترارزة

.(AN.SOM: Corresp. générales,vol. 186, lettres 189 &198/1834 et vol. 187/1835)

- حربه ضد فيديرب (١٨٥٤ - ١٨٥٨) بهدف استعادة والو وتغيير شروط التبادل في المنطقة التي تؤكد أكثر من غيرها وعي الترارزة بمجالهم السياسي وحرصهم على الدفاع عنه (Faidherbe: 1889/137) إلى حد جعل فيديرب (Sénégal I:41B/1855) يقول:

«إن قضية والو هي القضية الاكثر خطورة، فمن يطالب الترارزة بالتخلي عن هذا البلد كمن يطالب فرنسا بإخلاء اللورين والآلزاس، بيد أنني أعتقد أن ذلك ضروري وممكن. . .».

وقد تحقق بالفعل توقع فيديرب هذا، إذ تمكن في اتفاقية ٢٠ مايو ١٨٥٨ - التي أنهت حربه مع محمد الحبيب - من أن يفرض على هذا الاخير الاعتراف بسيادته على والو والقبول بشروط التبادل الجديدة بعد أن أصبح ميزان القوى راجحا لصالحه.

وهكذا فإن الدارس لعلاقات أمراء الترارزة بسكان وملوك الضفة اليسرى لنهر السينغال خلال القرنين ١٨ و١٩، وعلاقات أولئك الامراء بالفرنسيين خلال النصف الاول من القرن ١٩، سيرى بجلاء ماكان للتحكم في المجال من مكانة في تلك العلاقات ومالعبه ميزان القوى من دور في ترجيح كفة هذا الطرف أو ذلك في السيطرة عليه، مما يجعل مجال الامارة السياسي مجالا متحركا.

وهنا تجدر الاشارة إلى أن البعد السياسي الذي أعطاه أمراء الترارزة لمجالهم على الضفة اليسرى للنهر لايجد مسوغه في حضورهم السياسي والعسكري والاجتماعي في تلك المنطقة فحسب وإنما له كذلك مسوغاته التاريخية المتعددة. فالعمل على توسيع مجال الامارة جنوبا تمليه ضرورات اقتصادية واستراتيجية معروفة [التكامل الاقتصادي بين المنمين والمزارعين، توفير اليد العاملة الرقيقة، التحكم في الشريان المائي الثاني في المنطقة المهم في العلاقات مع الاروبيين. . .]، كما يمليه الاتجاه التقليدي لطرق التجارة عبر لصحراء، وانتشار الاسلام، والهجرات البشرية [بما فيها الهجرة الحسانية] بالمنطقة التي

يضاف إلى كل ذلك البعد الرمزي لكلمة «القبلة» على مستوى البنية الذهنية لسكان منطقة التوارزة الذين يحددون بها جهة الجنوب الجغرافي الذى فى اتجاهه تضرب الخيام وإليه تتوجه الاوجه والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية منذ أمد بعيد، الى درجة اصبحت معها قيمة المكان الاستراتيجية- والاقتصادية خاصة- فى المنطقة تتحدد بدرجة قربه أو بعده من حوض النهر حيث الثروة الزراعية الهامة وإمكانات التبادل التجاري مع الاوربيين. وهذا الشعور العام لدى سكان المنطقة هو ما حاول الشيخ سيدى محمد بن الشيخ سيديه [ت. ١٨٦٩] التعبير عن نسبيته أثناء استعراضه لفضائل «تامرزگيت» النائية شمالا فى منطقة آوكار حيث كانت توجد زاوية والده أنذاك، وماكان لها من مكانة فى نفسه وإشعاع ثقافي وروحي كبيرين فى المنطقة عموما، حيث يقول:

وإن قال المشوه فيك ناءت * عن الاخصاص شوّه والخلايا
وكان يظن أن الرزق جهلا * ضمانُ الله إذ خلق الحوايا
تعلق بالسوادن والنصارى * وما لله دونهم خبايا
فأم الارض مبعث خير هاد * وبيت الله فيها ذو الهدايا
وليس بها السوادن والنصارى * ولم تنقص بنقصهم مزايا. . .

وإذا كان مجال التوارزة السياسي قد اتسع كثيرا نحو الجنوب فى الفترة السابقة للنصف الثانى من القرن ١٩، فإنه سيقتصر منذ ذلك التاريخ على الضفة اليمنى للنهر ويعمل الامراء على إعطائه بعدا جغرافيا وبشريا أكثر تحديدا، ويشغل بالهم الدفاع عنه والتأكيد على سيادتهم عليه.

فالامير سيدى بن محمد الحبيب (١٨٦٠ - ١٨٧١) يحتج سنة ١٨٦٣ فى رسالة إلى فيديرب على قتل بعض رعاياه من سكان الضفة اليسرى لخمسة رجال من عيال سيدى، ويقول بأن أكبر دليل على ذلك كونهم لم يرفعوا الشكوى لأمير البراكنة ولا لفيديرب نفسه وإنما له هو «لأن مابين آفطوط وآفطوط عياله» ANS:9G1,ch.25 .

ويرد فى ٤/ ٤/ ١٨٦٤ على شكوى هذا الوالى من منع سيدى للقوافل المتجهة إلى سنت الويس من عبور أرض التوارزة مالم يدفعوا «الغفر» قائلا:

«. . . [لقد] منعتهم من أرضى ولم نمنعهم من أرضك وهي اندر إن أتوه من طريق ليس عليها حكمى لم نتعرض لذلك ولا يسوؤنى، ولكن الارض التى عليها حكمى نمنعها ولا يأتوها إلا بإذنى. . .» ANS:9G1,ch.26 .

ويؤكد سيدى على تلك السيادة فى الاتفاقية التى أبرمها مع أمير البراكنة سيدى اعلى بن احمدو تحت إشراف فيديرب لتسوية خلافات بينهما كان للسيادة على «بودور» دور مهم فيها، حيث جاء فى المادة ٤ منها ما نصه:

«. . . يتعهد أمير التوارزة، من جانبه، بالسماح للقوافل بالتوجه بكل حرية إما إلى بودور أو إلى دكّانه وبضمان سلامة الطرق من رأس الكراع حتى حدود أرضه غربا. كما يتحمل ضمن هذه الحدود - أي حتى بودور - للحكومة الفرنسية مسؤولية أي نهب يقام به على الضفة اليسرى للنهر. . .» (مارتى: ١٩٢١ ص ٣٩١).

وفى ١٨٦٥ احتج سيدى على الدور التخريبي الذى يمارسه فيديرب داخل السلطة الاميرية عن طريق المراسلات والاتصالات السرية مع أعلى واعليّة وإيوائه للناقمين على الامير، محيلا إلى اتفاقية ١٨٥٨ حيث يقول:

«. . . وقد استقر فى الصلح بيننا أن جعلنا البحر حاجزا بيننا وبينكم لايتجاوزه من كان معكم إلينا ولامن كان معنا إليكم. . .» (ANS: 9G2,ch.1/1865).

ويؤكد على تلك الفكرة في رسالة أخرى وردت على الوالى فى ٢٩ أغسطس ١٨٦٦ قائلا بأنه يجب «أن يكون البحر حاجزا بين المسلمين والنصارى، بأن يكون أمير اندر [الوالى] حاكما على النصارى والسوادين ويكون هو، أي سيدى أمير

تاجر. . .»(9G2,ch.2).

وإذا كنا نجد هذه النزعة لدى مختلف أمراء الترارزة فى الربع الاخير من القرن ١٩، فإننا سنقتصر عليها عند اعلى بن محمد الحبيب (١٨٧٣ ـ ١٨٨٦) الذي حظر في ١٨٧٢ على أهل شمامه اجتياز النهر إلى أرض الترارزة إلا بإذنه وتحت إشرافه، رغم أطماعه السياسية والترابية فى تلك المنطقة وعلاقاته الاجتماعية بأهلها. وقد جدد ذلك الموقف، بعد أن استتب له الامر فى الترارزة، فى رسالة إلى الوالى فى ١٨٧٥ فى معرض احتجاجه على دخول قوم لاجئين من أهل شمامه إلى أرضه بقيادة ابن خالته [سيديا ديوب]، حيث استطرد فى تلك الرسالة حديثا له مع أولئك القوم يقول فيه: «. . . لاجماعة بينى وبينكم، إنكم هتكتم حريمى ودخلتم أرضنا دون أمرنا. . .» (9G2,ch.11/1875).

ويرد على محاولات والى سنت لويس فرض سيادته على محطة دكّانه وغيرها من المحطات النهرية التابعة للترارزة وتدخلاته لإلغاء الضرائب المجباة على القوافل العابرة لأرض الترارزة قائلا: «. . . وإياك أيضا أن تتكلم فيما عليه عملنا، وأنا لا أتكلم فيما عليه عملك فذلك هو اللائق بنا وبمحبتنا وبعهدنا إلا ما اجتمعنا عليه وحلوبناه وتحدثنا فيه. . .» (9G2,ch.14/1878).

وإذا كنا قد ركزنا فيما تقدم على الجهود الخارجية للسلطة الاميرية التروزية في التأكيد على تصورها ومراقبتها لمجالها الترابى والايديولوجي، فلأن سيادتها عليه كانت قد تحققت بالفعل على المستوى الداخلي وتجسدت فى مظاهر مختلفة.

٢ ـ ١ ـ مظاهر السيادة داخليا:

أ ـ الحماية وتوفير الامن: لقد تجلت تلك النزعة مبكرا لدى أمراء الترارزة، الذين كان لقب: [أمجار] «ج. آماجير» أحد ألقاب الامير عندهم [٢٢]، وتجسدت على أكثر من صعيد. فقد ذكرت الروايات المحلية (A.Leriche: 1955, P.180) أن اعلى شنظورة مارس هندسة السلطة (géométrie du pouvoir)حسب تعبير كلافال: (P.CLaval)، حيث قام بعد عودته من المغرب فى ١٧٢٠ بتنظيم مراقبة المجال الترابي للامارة بتوزيع تلك المهمة على مختلف أفخاذ الترارزة. فأسند مراقبة وسط وشرقي بلاد الترارزة إلى أولاد دامان وأولاد البوعليه وموسات، ولقبوا بـ«الترارزة البيض». وكلف أولاد آكشار وأولاد بنيوك بالدفاع عن حدود الامارة الجنوبية المتاخمة لبلاد السودان، فلقبوا «بالترارزة الكحل».

أما الشمال فقد أسندت مهمة الدفاع عنه إلى لعلب ـ ولاسيما ضد أولاد اديلم الذين كانوا وقتها فى نزاع مع الامارة ـ ولقبوا «بالترارزة الحمر» و«بالشعالة» أحيانا لتعرضهم لأشعة الشمس الحارقة واصطلائهم بنار المجموعات الحسانية الطامعة فى الامارة من جهة، ولشدة بأسهم فى الحرب من جهة أخرى.

ولايقتصر الامر على توفير الامن الخارجي لسكان الامارة وإنما كان يوفر على الصعيد الداخلي برد المظالم ونشر العدل. وسنكتفى فى هذا السياق ببعض آراء الاورستقراطية الزاوية المنافسة تقليديا لبنى حسان رسلطتهم.

فالمامون ولد محمذن الصوفي اليعقوبي يشيد بدور اعمر ولد اعلى شنظورة (ت: ١٧٥٧) فى توفير الامن وردع الظلمة قائلا:

. . . وأبقى للبرية منك عمرا * يكون من البغاة لهم ظلالا. . . . . (الديوان: ص ٧٦).

ويتفنن والد بن خالنا (ت: ١٧٩٨) فى نظمه لحوادث السنين (R.Basset:1913,P.543) فى الثناء على هذا الامير وماكان له من دور فى صيانة الامن وتوفير العدل بوجه عام ورعاية الزوايا بوجه خاص.

وقد بلغ الامر بالسلطة الاميرية التروزية حد إعدام اللصوص أحيانا لتوفير العدل وصيانة الامن [٢٣] مما جعل الشيخ محمد المامى [كتاب البادية: ص ٥٧]، يقول بأنه «قد تستغنى المصلحة العامة عن المداراة كبلاد القبلة فى بعد الازمان

ويسوق صاحب الوسيط امثلة عدة على ذلك الامن وتوفير سبله بوجه عام وفي عهد امراء وقته بوجه خاص فيقول: «. . . فأبناء أحمد بن دامان، يدافعون عنهم [الزوايا] الظلمة ويخاطرون بأنفسهم في ذلك ويرونه فخرا لهم. . . وإذا وقعت فتنة في الزوايا فإنه [رئيس أولاد احمد بن دامان] يرى أن الضغط عليهم أصلح لهم. . . وقد قال بعض الزوايا: يومان لاظلم فيهما، يوم القيامة إذ يقول الله تعالى: ﴿لاظلم اليوم﴾، ويوم ينظر الانسان إلى خيم أبناء أحمد من دامان، لأنه يكون يومئذ آمنا. . .» [الشنقيطي: ١٩٥٨، ص: ٤٨٠ - ٤٨١].

وينوه ابن الامين بدور سيدي بن محمد الحبيب في تحري العدل فيقول بأنه «. . . كان يجتهد في الحكم بالشريعة، أعني في منازعات الناس ويعين لذلك العلماء، ويدقق في تحري ذلك. . .» (نفس المصدر، ص ٢٨٣).

ويؤكد محمد فال بن بابه العلوي (ت: ١٩٣٠) تلك الحقيقة حين يقول:

«. . . وكان [سيدي] من كبراء الامراء يحب العلماء ويبجلهم ولاسيما أهل الورع منهم، يسأل عن النوازل الواقعة ويتناظر العلماء بين يديه وتنظر الكتب حتى يظهر له الصواب ويفهم، تكثر الزوايا ولاسيما العلماء بمجلسه، يسير بنفسه في موكبه لدفع الظلم عن مسلم خاص، وتكون الفتنة بين قوم فيسير إليهم بنفسه وينزل عند غيرهم من اللحمة ويصلح بينهم، ولم يأخذ منهم مثقال ذرة، ويسرق مال المسلم ويأتيه فيرسل لمن يظن أنه سرق حتى يظهر أمر تلك السرقة. فهو رحمة للمسلمين جزاه الله خيرا، ويبغضه أهل الشر والفساد [. . .]. وقد تقع الحرب بين الزوايا فيرسل إليهم الكتيبة تقيم عليهم الصريخ فتخرج المدافع فتأخذها منهم. . .» (ابن بابه: ١٩٨٦، ص: ٦٥).

أما أخوه اعلي فقد «. . . نشر العدل حتى انه لايتجرأ أحد من التارزة على أن يغصب شلة لطالب ولايركب جملا له، وجعل على جميع الناس، إذا ضرب أحدهم الاخر ولو لطمة بيده، مائة على الضارب ومثلها على المضروب حتى ما بقي أحد يقدر على ضرب الاخر، فوقع مرة أن اثنين تشاتما فصار كل واحد منهما يبصق في وجه الاخر ولايقدر أن يضربه. . .» (الشنقيطي: ١٨٤ - ١٨٥).

وهذه الهيبة التي عبر عنها نص صاحب الوسيط ليست وليدة عهد اعلي فقط وإنما نجدها لدى أكثر من واحد من أسلافه الذين أحكموا قبضتهم على مجالهم البشري. فلنستمع بهذا الخصوص إلى ما يقوله الشيخ سيديه الكبير (ت: ١٨٦٨) - مثلا - في رسالة إلى محمد الحبيب:

«. . . أعلم أن حسن التدبير سبب التعمير وأن سوء التدبير سبب التدمير وأن السلاطين رعاة على رعاياهم. . . [و] أنك سلطان وملك من أعظم سلاطين المغافرة ومن أقواهم ولله الحمد شوكة وأكثرهم أعوانا وأنصارا، ينصرك البر الصالح لعدلك والفاجر الطالح لخوفك والطمع فيك. . .» (ولد يوسف: ١٩٨٥، ص: ٧١).

ويعطي محمد بن امينو بن الفراء التندغي (ت: ١٩٢٦) [٢٤] العديد من الامثلة على شيوع الامن في منطقة التارزة ودور السلطة الاميرية فيه. ونكتفي هنا بمثالين من تلك الامثلة لها دلالتها الخاصة.

فالاول يتناول فيه ابن الفراء قصة مفاخرة بين أحد أعضاء البيت الاميري في تكانت وأحد أعضاء البيت الاميري في التارزة، فيقول:

«. . . ومن عدهم أن الذي يسمى أكضاي* بالحسانية لايرى إلا في أرضهم وذلك أن ما في البلد من الخنط* والسكر والزرع ومارة* ولدنه* بالحسانية الرفيعة يجتمع عند عجوز من الاماء في خلاء من الارض وليس معها رجل واحد حرا أو عبدا ولم تأت قط لأمير ولا غيره تشتكي مظلمة من أحد. وهذا الوجه هو الذي غلب به سيدي بن محمد الحبيب سيدي احمد لبات بن محمد بن اسويد احمد حين افتخر على سيدي بأن أرض تكانت ذات خصب وثروة مال وصحة أنفس الآدميين وصلاح حراثة، نخلا وقمحا وشعيرا وتاغليت* بالحسانية، وأن البيت في ليلة واحدة تروح له ملكاطة* العلك ممتلئة وعرش النخلة وتتكليت* القمح وتاغليت والناقة والبقرة والشاة حفل في الاعلى من الخريف، والخيل صالحة حتى أن بيت الزوايا يوجد عنده من الخيل العتاق ما يقارب العشرين. فأجاب سيدي بن محمد الحبيب بكلمة واحد غلبه بها وهي أنه قال له أن ليست في تكانت بيكه بنت اغمريت وهي عجوز من عبيد أهل محم عبدي* عند بوزبره* يوضع عندها ماق البلد من انواع المطعومات والخنط والفضة وليس معها هناك إلا الكلاب والاديك ولم تشتك قط من أحد يأخذ من عندها شيئا مما هو مودع عندها. وأقر له سيدي احمد لبات بالغلب لأن أرضهم أرض قطع الطرق وأرض قتل الرجل على لباسه وسرقة جميع الاموال حتى أن الفرس إذا كانت مقترنة بحديد مع صاحبتها تقطع يد إحداهما

... ... يستشهد فيه بعون من اسياه «المعنى التاظي» : [٢٥]

كولُ للرسولْ [٢٦] أبكارْ [٢٧] * والشيخ [٢٨] أسيد احمد لباتْ [٢٩]
والمختار [٣٠] أول المختار * عن كالُ كوم إديبسات
أل-لحك حومت بِكَّار [٣١] * واوهام احاصر لبيداتْ [٣٢]
عن ول اعمر ول المختار [٣٣] * اترابُ ما فيها هنتات [خ/ منى]

وتجسد هذه الشهادات التاريخية - وغيرها كثير - مظهرا آخر من مظاهر السيادة الاميرية داخليا، هو اعتراف سكان الامارة بها ولا سيما الفئة المشرعة في المجتمع الاميري (الزوايا).

ب - الاعتراف الشرعي بسيادة الامراء على مجالهم الترابي والبشري:

لم يشرع الزوايا سلطة بنى حسان عمليا عن طريق التعامل معهم منذ أن تغلبوا على المنطقة فحسب، وإنما شرعوها نظريا بإصدار الفتاوى الفقهية بشأنها. فإذا كان بعضهم ظل متحفظا كثيرا من التعامل مع السلطة الاميرية ويطعن - أحيانا - فى شرعيتها، فإن معظم وجهاء زوايا المنطقة قد شرعوا - بعد تضميد جراح القرن ١٧ - تلك السلطة عمليا ونظريا.

فقد سئل محنض بابه بن اعبيد (ت: ١٨٦٠) - مثلا - عن حكم النصارى إذا صالحهم بنو حسان هل ذلك الصلح معتبر شرعا فيكونون معاهدين أم لا؟ فقال:

«جوابه والله الموفق أنهم معاهدون، لأن المتغلب تعتبر أحكامه وتلزم [خ/ منا]، فإن الامامة تثبت لمن تغلب وإن لم يستوف شروطها وتجب طاعته» (الفتاوى: ص ٣٣).

ويؤكد محنض بابه ذلك الموقف فى فتواه الشهيرة التى يرد بها على طعن محمذ فال بن متالى فى حكمه بالقصاص على رجل من اركاكنه، قائلا:

«... وعلى تقدير أن من حكم فى هذا الامر لم يكن قاضيا، فلا أقل من أن يكون محكما فيمضى حكمه إن كان صوابا، فقد رضي بتحكيمه الخصمان والامير المتغلب الذى جعل الفريقان الامر بيده اختيارا أو قهرا، والقهر على ما ارتضاه الشرع يلزم... [خ/ منا]. وقد ذكر العلماء أنه تجب طاعة من تغلب وإن فقد شرط الامامة.» (نفس المصدر).

---

* الفضاي: هو المكان الذى يستودع فيه الحي البدوي شبه المستقر الثمين من أثاثه وممتلكاته المادية أثناء حركته الانتجاعية الواسعة المجال.
* الخنط: القماش
* مار: الارز
* لمدنة: الخيام وأثاثها الفاخر بمختلف أنواعه
* تغليت: الذرة البيضاء
* الملكّاطة: هي الجراب الذى يحمله لاقط العلك لجمعه فيه أثناء عملية جنيه من الاشجار.
* تتكليت: السنبلة
* أهل محم عبدى: بطن من بطون تندغه، فصيلة المركمة [عن محمذن بن باباه].

على تنفيذ الاحكام الصادرة عنها بل يدعون العلماء للمناظرات لاظهار الحق، كما كان الحال فى المناظرة التى عقدها سيدى بين الشيخ سعد بوه والعلماء المشككين فيه إبان قدومه على منطقة الترارزة تحت إشراف علماء محايدين (الشيخ سعد بوه: الاسنة النافذة فى رد البيعة الكاذبة).

وذهب علماء المنطقة إلى اشتراط مشاركة السلطة الاميرية فى تنصيب القضاة للقضاء كما نصت على ذلك الفتوى التالية لمحمذن بن محنض بابه:

«... إن نقض الاحكام إنما هو للقضاة المتصبين للقضاء ولابد من أن يكون ذلك القاضى قاضى جماعة بأن تجتمع على نصبه فى بلادنا هذه جماعة من علماء تشمشه وتندغه والمجلس وبنى الحاج وإدابلحسن والعلويين وبنى احمد بن دامان...».

ويذهب بكى بن سيدى بن حرمه (ت: ١٨٧٩) إلى أبعد من ذلك، فينص على حق أمراء الترارزة الشرعي فى تنصيب القضاة، فيقول بخصوص سيدى بن محمد الحبيب فى فتوى موجهة إلى محمذن بن محنض بابه أثناء مناظرة فقهية بينهما:

«... لاشك أن عقد مثل سيدى بن محمد الحبيب للقضاء معتبر لأنه متغلب، والمتغلب تثبت به الامامة...» (نص الفتوى بمكتبة أهل حامدن بتوجنين).

وأكد محمذن بن احمد بن محمد العاقل فى رسالة إلى الامير محمد الحبيب يلقبه فيها بالخليفة تلك الحقيقة عمليا، فقال:

«... موجبه إليك بعد تجديد العهد أن ابني زين محمد والمبارك وبوقل بن اللين حكمونى فى خصومتهم المعهودة فامتنعت حتى تأذن لي فى القضاء بينهما وتنفيذ ما حكمت به فى تلك القضية بعد أن توكل على احمد ولد زين من يقوم له بحقه تقليلا للخصومات ما أمكن...» (راجع نص الرسالة فى مكتبة حفيده المرحوم حامد بن بيها).

ولعب شعر المدح الصادر فى الاساس عن فقهاء (ابن رازكة، اليدالى، المامون، ابن الطلبه، ابن اكتوشنى، ابن حنبل، يقوه، ابن النعيم...) دورا مهما فى تشريع السلطة الاميرية التروزية، شأنه فى ذلك شأن المراسلات والعلاقات الشخصية. فالشيخ سيديه - مثلا - الذى كان له نفوذ روحي وسياسي كبير جدا فى عموم البلاد وعلى مستوى الامراء بوجه خاص، كان يعترف بسلطة أمراء الترارزة الثلاثة الذين عاصروه ويحثهم على السهر على مصالح البلاد والعباد التى ولاهم الله. وقد تبادل مع محمد الحبيب وحده ١٧ رسالة تبرهن بجلاء على اعتراف ذلك العالم الجليل بالسلطة الاميرية التروزية وإسدائه النصائح الخالصة لها دينيا ودنيويا. فقد كتب إليه فى إحدى رسائله النصحية يقول:

«... هذا وانه من عبد ربه الغني به سيدى بن المختار بن الهيبه إلى سيد أقرانه ومقدم أهل زمانه وفريد عصره فى أوانه محمد الحبيب بن أعمر بن المختار وابنه سيدى نضر الله أيامهما ونصر أعلامهما وأكثر فينا وفيهما منافع المسلمين وجعلنا وإياهما من عباده المسلمين الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون، وبعد فإنا نوصيكما بتقوى الله العظيم واقتفاء سنة نبيه الكريم ونوصيكما ونأمركما بملازمة العدل فى البلاد التى أنتما فيها والعباد التى حكم الشرع عليكما برعايتها وتوليها، فعدل السلطان من أفضل الاعمال وأشرف الخصال إذ لاتصلح له دولة إلا به ولا تقوى له صولة على أعدائه إلا بسببه...» (مخطوطة مكتبة المرحوم هارون بن الشيخ سيديه).

وقد تصدرت معظم رسائله إليه عبارات مثل «سيد أقرانه ومقدم أهل زمانه سلطان الترارزة غير منازع وحامل لواء كل قطرها غير مدافع»... أو «حامل أعباء خلافتها غير مدافع...».

ويتجلى عنصر السيادة الترابية والبشرية فى تلك الرسائل من خلال عبارات نموذجية تكاد لاتخلو منها رسالة من رسائله مثل «... واعلموا أنكم رعاة جعلكم الله تعالى فى رعاية قطركم وهو ناظر إليكم كيف تعملون فى رعايتكم...» أو «نوصيك بالعدل والرفق فى الارض التى أنت متوليها والخلائق التى أنت مقدم عليها، فإن الدولة لا تستقيم إلا بالعدل والاجر العظيم...».

«... إلى سيد الجزائر ومعتمد أهل زمانه محمد الحبيب بن اعمر بن المختار وابنه سيدي، نصر الله ايامهما ونصر اعلامهما واصبح دولتهما وقوى على الاعداء شوكتهما وصولتهما وأعاننا وإياهما على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، بالسلام التام الطيب العام والتحية البالغة والاكرام، وبعد فانا نوصيكم بتقوى الله العظيم واقتفاء سنة نبيه الكريم ونؤكد عليكم فى الوصية بالعدل فى البلاد والنظر بعين الرفق والرأفة والاحسان فى جميع العباد ولاسيما عامة المؤمنين الذين هم فى حيطة حكمكم قاطنون، [خ/ منا] وخصوصا من ينتسب إلينا من الاقارب والتلاميذ والجيران وأهل المعارف من الاصحاب والاخوان» (نفس المصدر السابق).

وقد تدخل الشيخ سيديه أكثر من مرة لدى محمد الحبيب لتسوية خلافاته مع جيرانه من الامراء، وبينه وبين خصومه الداخليين ولاسيما زعماء خندوسة [٣٤] المنفيين من أرض التارزة.

ج ـ الانشقاقات والهجرة عن البلاد:

قد يكون من المفارقة اعتبار الانشقاقات التى من شأنها إضعاف السلطة الاميرية سياسيا وعسكريا فرصة لتأكيد سيادتها السياسية على مجالها. فالمقصيون من التنافس على السلطة أو الخاسرون فى صراع حاسم مع السلطة الاميرية مضطرون للجوء إلى خارج المجال الترابي الاميري طلبا للأمن أو النجدة، فى حين أن الانتصار فى تلك الصراعات يزيد من قبضة السلطة الاميرية على مجالها ويعطيها مصداقية أكثر مادامت السلطة لاتمكن ممارستها إلا فى مجال ترابي محدد نسبيا.

وتبدأ ممارسة تلك السلطة فى أضيق تعبير مركزي عن ذلك المجال (المحصر) لتشمل المجال الترابي للإمارة بوجه عام. فالمحصر المنظم بطريقة مجالية معينة (Dubié: 1953, PP.163 - 166) هو رمز الامارة والسلطة السياسية الاميرية وينبغى أن يقيم فيه بشكل شبه دائم أو بالتناوب ممثلون عن مختلف أفخاذ التارزة، وأن يحصل الراغبون فى السفر منه أو الاقامة خارجه على إذن مسبق من الامير، بل إن الاقامة غير المأذونة خارجه ـ ولاسيما بالنسبة لأعضاء البيت الاميري ـ تعتبر عصيانا للامير وخروجا على سلطته.

وغالبا ما يبدأ ذلك العصيان على مستوى الطامعين فى السلطة بمحاولة إقامة محصر مناهض للمحصر الاميري قبل أن يرغمهم ميزان القوى ـ أو يرغم خصومهم ـ إلى اللجوء إلى الخارج.

وإن المتتبع لتاريخ التارزة ليجد أكثر من حالة اضطر فيها أولئك الخاسرون فى المنافسة إلى اللجوء خارج المجال الترابي الاميري. فقد خير اعلى شنظورة ارحاحله بعد انتصاره عليهم فى معركتي «املیزمات ارحاحله» و«اعليب الكصره» فى نهاية العقد الثانى من القرن ١٨ بين الرضوخ لسيادته ودفع المغرم أو الخروج من أرض التارزة. واضطر أولاد دامان بعد هزيمة أولاد احمد بن دامان بقيادة اعلى الكورى لهم بعد معركة دامان سنة ١٧٨٤ إلى اللجوء إلى تكانت لبعض الوقت لتأمين أنفسهم وتجميع قواهم استعدادا لجولة انتقامية قادمة مع أبناء عمومتهم طبقا لوصية صاحبهم الذى قال لهم عندما حضرته الوفاة: «لاتسكنوا معهم ولا تتغاضوا عنهم لأن ذلك سيؤول إلى إخضاعهم لكم والتعالى عليكم...».

وسيشكل هؤلاء قطب معارضة دائم للسلطة الاميرية فى التارزة منذ ذلك الوقت. وهكذا سيدعمون احمد بن اعلى الكورى [ت: ١٨٢٨] فى مطالبته بالامارة ومناهضته سلطة اعمر بن المختار، وتدفعهم هزيمتهم فى معركة انتمركاي الثانية سنة ١٨١٧ إلى اللجوء مجددا إلى تكانت لطلب الدعم لثأر من أعمر ولد المختار وأنصاره. وعندما اشتدت الوحشة بين محمد الحبيب وأخيه احمد للبكاط سنة ١٨٤٦ وزعماء خندوسة المناصرين له، لجأ الاول إلى أولاد دامان فالبراكنة قبل أن يضطر هؤلاء إلى إخراجه من بلادهم تحت تهديد محمد الحبيب لهم بالغزو، ويتوجه إلى آدرار حيث قتله لعلب، حرس الحدود الشمالية للامارة، سنة ١٨٤٩ بناء على أوامر من محمد الحبيب وابنه سيدى بقتل كل من وجدوه خارجا على السلطة الاميرية إلى الشمال؛ فى حين لجأ زعماء خندوسة إلى أمير آدرار احمد بن عيده الذى كان أخوه المختار لاجئا عند أمير التارزة. ولم يتمكن أولئك الزعماء من العودة إلى المنطقة إلا فى ١٨٥٣ بعد جهود وساطة حثيثة وشفاعة من الشيخ سيديه لدى الامير محمد الحبيب قيل إن هذا الاخير قبلها على مضض لما يتوجسه منهم من خيفة حيث يروى أنه قال مخاطبا الشيخ

سيديه بالمناسبة ما نصه: «... إني قد امنتهم ولكنهم قاتلي لامحالة، وكاني بك إذا سمعت ذلك تقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء، إنهم قتلوا أميرا عادلا». (باتًا: كتاب تاريخ بلاد التراررة).

وستكون ظاهرة اللجوء هذه عن مجال الامارة الترابي ـ التي عرفتها مختلف الامارات الاخرى إبان أزمات الخلافة في القرن ١٩ ـ ممارسة عادية في التراررة خلال الثلث الاخير من القرن ١٩، حيث سيلجأ كل من اعلى وابراهيم السالم إبني محمد الحبيب وأحمد سالم ولد اعلى إلى الضفة اليسرى للنهر للاحتماء بالفرنسيين من خصمه في الامارة ولاعداد العدة للانتقام منه والاستيلاء على السلطة. فأحمد سالم بن محمد الحبيب يقول للوالي الفرنسي بأن اعلى لايهمه أمره إطلاقا مادام في أرض الفرنسيين، أما «إن تجاوز إلينا البحر أريناكم وأريناه ما يفعل بمن خالفنا...» (9G2,ch. 6/1870). ويؤكد على موقفه ذلك في رسالة أخرى حيث يقول: «... وأما اعلى بن محمد الحبيب فإن قال لكم انه يقدر على حربنا فليقطع إلينا يحاربنا في أرضنا وأرضه وقبيلتنا وقبيلته، وإن كان الحرب لامحالة في أرضكم وأهل عملكم فأنتم المحاربون لنا...» (نفس المصدر).

ويستخدم اعلى بدوره السلاح نفسه ضد أخيه ابراهيم السالم وانصاره في رسالتين إلى والي سنت لويس في ١٨٧٥ و١٨٧٦ يطلب منه فيهما الحيلولة دون قيامهم بغارات من أرضه ماداموا فيها ضد أرض التراررة «فإن خرجوا فلا عليك فيما فعلوا» (9G2,ch.12). وكان الامر كذلك بالنسبة لأعمر سالم بن محمد الحبيب مع أحمد سالم بن اعلى أثناء صراعهما على السلطة في تسعينات القرن ١٩، ولأبناء سيدى مع هذا الاخير، ولأولاد اعلى مع أحمد سالم ولد ابراهيم السالم في بداية الفترة الاستعمارية حيث اضطروا إلى الهجرة إلى البراكنة سنة ١٩٢٥ وأقاموا بها فترة من الزمن.

وإذا كانت الانشقاقات على مستوى السلطة الاميرية مناسبة لتأكيد السيادة على المجال، فإن التدخل في النزاعات بين سكان الامارة ـ ولاسيما في النزاعات العقارية ـ يشكل هو الاخر مظهرا من مظاهر تلك السيادة.

د ـ التدخل في النزاعات العقارية:

تتجلى رقابة السلطة على الارض من خلال رقابتها على السكان ـ كما رأينا ـ وتجد تلك الرقابة التعبير الرمزي عنها في إمكانية التدخل في النزاعات بوجه عام والنزاعات العقارية بوجه خاص. وتمدنا الروايات التاريخية المحلية بحالات عديدة من تدخل أمراء التراررة في تلك النزاعات بمبادرة شخصية منهم أو بطلب من المتنازعين أنفسهم. فقد تدخل الامير أعمر ولد المختار ـ مثلا ـ في النزاع بين تندغه وتشمشه على ملكية المنطقة الساحلية وحق الاشراف على بيع العلك فيها، وحكّم النابغة الغلاوي بين الطرفين (ولد حامدن: ج ٧، ص: ١٥).

وقام ابنه محمد الحبيب بالتدخل للفصل بين إيدوعلي وإدابلحسن بعد يوم بوطريفيه ثالث معركة في الحرب التي نشبت بينهما جراء النزاع على ملكية لميلحه.

ولم يقتصر هذا التدخل على النزاعات الداخلية، بل كان الامراء يتدخلون في نزاعات سكان منطقتهم مع سكان المناطق الاخرى ولاسيما إذا تعلق الامر بالدماء.

فسيدى بن محمد الحبيب يطالب فيديرب بدفع ديات قوم إدابلحسن الخمسة الذين قتلهم بعض سودان الضفة اليسرى في إحدى رسائله (9G1: 1864, N 206)، ويحتج في رسالة اخرى على القيمة التي عوض بها فيديرب تلك الديات ويقول بأنها لاتتماشى مع «شرع المسلمين ولا النصارى» ويهدد بمعاملته بالمثل عند الاقتضاء إذا لم يف «بحقوق عياله» (9G1:1864, Lettre N 208).

وقام أحمد سالم ولد اعلى بالتدخل لصالح أولاد ابيرى في نزاعهم مع إچيچبه على آبار في آمشتيل ونزاع أدباي في شمامه، وأبرم مع أمير البراكنة أحمدو بن سيدى اعلى والوالي الفرنسي في السنغال اتفاقيات لحل ذلك النزاع الذى شهد معارك دامية واستمر بشكل متقطع من نوفمبر ١٨٩٥ إلى ٧ فبراير ١٩١٢

واحد هذا التدخل احيانا سحل عقوبة مالية تفرض على المتنازعين كما كان الحال عند عهد اعلي بن حمد الحبيب [١٨٧٣ ـ ١٨٨٦]. فقد سن هذا الامير ضريبة مائة «بيصة» من النيله على كل متنازعين مهما كانت مسؤولية كل منهما في النزاع للحيلولة دون نشوب النزاعات في إمارته، ذلكم الاجراء الذي أعطانا ابن الامين الشنقيطي قبل حين أصداء عن فاعليته في الحفاظ على الامن الداخلي.

وتؤكد وثائق الادارة الاستعمارية استمرار العمل بتلك الضريبة وبنصيب الامير من ديات أتباعه وأفراد قبيلته حتى سنة ١٩٣٤ [٣٥]. فقد اعترفت اتفاقية ١٩١٠ لأحمد سالم ولد ابراهيم السالم بذلك الحق. ونجد في أمر المقيم الفرنسي بالمذرذرة الملازم (Gilles Aramis)، الصادر في ٢١/ ١٢/ ١٩١٦ تصريحا للامير باستخلاص مائة بيصة من شيخ المزازكة كنصيبه من دية يطالبهم بها ادكفوديه، وآخر في ٩/ ١/ ١٩١٧ حول نفس الموضوع، كما نجد تصريحين صادرين في ١٣/ ٤/ ١٩١٧ و٧/ ٧/ ١٩١٧ بشأن جباية تلك الضريبة على متشاجرين (أرشيف المذرذرة).

ويبدو أن تلك الضريبة قد استحدثت بالفعل في الربع الاخير من القرن ١٩ لمواجهة الاضطرابات والنزاعات الداخلية التي تضاعفت وقتها على الساحة الاميرية، إذ لانجد لها ذكرا في النظام الضريبي التقليدي للامارة.

٢ ـ النظام الجبائي في إمارة الترارزة:

تشكل الجباية مظهرا من مظاهر السيادة ورقابة المجال الترابي والبشري. وتزداد المسألة أهمية في حالتنا المحددة نظرا لكون الضرائب تشكل ـ إلى جانب السلب ـ المصدر الوحيد لتوفير متطلبات عيش السلطة الاميرية التي تأنف من ممارسة النشاطات الاقتصادية المنتجة.

وإذا كانت تلك الضرائب تعكس إلى حد كبير النظام العقاري والبنية الاجتماعية والسياسية في الامارة، فإنها تعبر كذلك بصدق عن سلطة الامراء السياسية على أراضي الامارة.

وهذا النظام الجبائي التروزي الذي ظهر مع ظهور الامارة وترسخ بترسخها وأصبح مقننا عرفيا واجتماعيا وله مكوناته لمختلفة كما وكيفا ومواسمه المحددة وجباته المختصون [أولاد اركّيك واحراطين أهل سيدي المختار ولد الشرغي]؛ يعكس في آن واحد السيادة السياسية على الارض وعلى البشر.

وسنحاول باختصار التمييز بين ذينك النوعين من الضرائب، وإن كان الفصل بينهما فيه نوع من التعسف لما بينهما من تداخل على المستويين الرمزي والعملي.

٢ ـ ١ ـ ضرائب السيادة على المجال الترابي:

يمكن أن ندرج أساسا تحت هذا الصنف ضرائب «الثلث» و«الغفر» و«اباخ» و«آمكبل».

ـ ثلث الماء: فرضت هذه الضريبة على زوايا المنطقة، الذين يملكون الارض ملكية فعلية ويقومون بحفر الآبار وصيانتها، في أعقاب هزيمتهم في حرب شربيه ـ إلى جانب ضيافة ثلاثة أيام لأي عابر سبيل من بني حسان ونقله إلى أقرب حي (وصلني) ـ لضمان تموين الحسانيين بواحد من أهم مقومات الحياة في الصحراء دون عناء حيث يخصص لهم ثلث ماء كل بئر وردوا عليها. وإذا كانت هذه الضريبة قد فرضت في الاصل من قبل السلطة الاميرية كرمز لسيادتها السياسية، فهي

وقد استمر العمل بهذه الضريبة حتى [illegible]
انتجاعهم، وإلغاء الثلث عن الآبار المستحدثة، وإعطاء الاولوية المطلقة فى الاستفادة من الآبار القديمة لملاكها مع إمكانية جباية الثلث عليها مبدئيا.

ـ الغفر: تختلف الروايات المحلية بشأن الاشتقاق اللغوي لهذه الكلمة، أما اصطلاحا فهي تعبير عن رسوم عبور. فقد ذهب الشيخ محمد المامى (ت: ١٨٧٥) إلى أنها مشتقة من الخفارة التى هي الضمانة والحماية (شرح الدلفينية)، فى حين اعتبر باثّا (ت: ١٩٨١) أنها متولدة من إسم المغافرة الذين كانوا يأخذون تلك الضريبة على العابرين (وبعض القاطنين) لمجالهم الترابي.

ومن هذا المنطلق يمكن أن تكون، كذلك، مشتقة من «الغُفَّارة» التى هي زَرَدٌ من الدرع يلبسه المحارب تحت القلنسوة، فتكون رمزا لأصحاب السيادة الحربية خاصة وأن بنى حسان كانوا فى بداية عهدهم بالمنطقة إذا أخذوا «الغفر» من قبيلة أو مجموعة ما تركوا لها آلة حربية تتمسك بها كدليل على أنها قد «غُفرت» فلا تطالب به مجددا.

وهي عبارة عن ضريبة يدفعها الاجانب على المنطقة ـ تجارا أو متمين ـ للامير بعد التفاهم على حجمها ونوعها لضمان أمنهم وسلامة ممتلكاتهم (حق المرور). وتؤخذ من المجموعات أو القبائل جملة ولادخل للسلطة الآخذة فى تقسيمها على المجباة منهم. وقد يؤخذ الغفر من بعض سكان التارزة الذين يغادرون مجال الامارة الترابي مؤقتا (حق الخروج) وحتى من بعض المجموعات المقيمة فيه كما هي الحال بالنسبة لايمراكّن الممارسين للصيد على الساحل الاطلسي، والذى افتدته الادارة الفرنسية سنة ١٩٤٥ بمبلغ ٤٥٠٠٠ فرنك. وقد كان الامراء يحرصون بوجه خاص على جباية تلك الضريبة من الداخلين إلى أرض الامارة كرمز لسيادتهم السياسية كما تبرهن على ذلك مراسلاتهم مع الولاة الفرنسيين فى سنت الويس خلال النصف الثانى من القرن ١٩ الذين سعوا ـ دون جدوى ـ سعيا حثيثا إلى إلغاء تلك الضرائب جزئيا أو كليا.

فقد جاء فى رسالة سيدى بن محمد الحبيب المشار إليها أعلاه والواردة على فيديرب فى ٤/ ٤/ ١٨٦٤ ردا على محاولات هذا الاخير إلغاء «الغفر» على التجار العابرين لأرض التارزة، قول سيدى:

«... وما حملنى على ذلك إلا غفر لى عليهم ولأجدادى عليهم وليس بجديد ولابقهر اليوم ولكنهم تطوعوا به قبل وخانوا فيه ولانقبل الخيانة. وأعلمك بأنك إن أرسلت لى أنى نجعل غفرهم فى يد أحد فى اندر يأتينى بالذى عليهم نفعل ذلك ونسبل طريقهم، وغير هذا لايمكن ولايصح، وأنت إن فعلت هذا جديد، أي قولك إنك تأخذ شيئا من رفائق عياله ـ وهم البيظان ـ كجمل عن عشرة جمال ليس كفعله هو، هو فعله قديم وله تطوعا، وإن فعلت ذلك يكون ذلك نقضا للعهد...» (9G1: ch. 26).

ويرد أخوه اعلى على رسالة من والى سنت الويس فى ١٨٧٩ يقر فيها بجباية إتاوة العبور (الغفر) من القوافل المتجهة الى سنت الويس فى الذهاب ويحتج على إلزامهم بها فى الاياب ويهدد بتوجيهها إلى مركز اصويرة على الساحل المغربي عبر آدرار إذا استمر أمير التارزة فى الاصرار على موقفه، يرد اعلى مؤكدا إصراره على جباية الغفر من القوافل العابرة لأرضه. ويعتب على تصرفات الوالى ويعلل موقفه ب «شأن أهل الغفر [الذين] دخلت بينى وبينهم دخولا لم يسبق لأحد قبلك من النصارى ولايمكن، ولاسيما خبر تكنه فإنك قضيتهم من غفرى قضاء غير لائق بك، وأنا لم أقبض منهم إلا بعض غفرى عليهم مع أن طريقهم إليك منى ولو شئت لم يأت أحد منهم لانْدَرْ مادمت حيا...» (9G2, ch. 15).

وقد قدر جورج بولى G.Poulet (1904: 24) فى ملتقى القرنين ١٩ و٢٠ عائدات السلطة الاميرية من الغفر بـ: ٤٠,٠٠٠ فرنك.

وقد ألغي الغفر بعد إخضاع منطقة التارزة للسيطرة الفرنسية.

ـ اباخ: أتاوة تؤخذ على كل حرث فى شمامه يوم حصاده كتعبير عن السيادة السياسية على تلك المنطقة الزراعية الغنية

بعد إخضاعها للاستعمار الفرنسي فى ١٨٥٥ (Gerhardt, 1911: 482 - 483) ، ولو نظريا على الاقل.

وتختلف الروايات التاريخية بشأن حجم تلك الضريبة فى بلاد الترارزة. فأحمد سالم بن باكّا [ص: ١٢] الخبير بشؤون الترارزة يقول بأنها تبلغ ٤٠ مدا محليا [حوالي ٢٠٠ كلغم] عن كل حقل، ويسمى هذا القدر من الزرع «ماته». وقدرها بولى Poulet (ص ٢٣) بـ: ٥٠ كلغم مهما كان حجم الحقل، وجيرار Gerhardt بعشر المحصول فى المتوسط (١٩١١: ٤٨٢)، فى حين قال ديبى Dubié (١٩٥٣: ١٦٨) أن هذه «الماته» تتراوح بين ٣٠ إلى ١٣٠ كلغم من حرث لآخر. ويفيد سانتوار Ch .J. Santoir (١٩٧٣: ٤٤) اعتمادا على L.P. Cheruy (١٩١١) أنه قد سمح لجماعة التكاريز ابتداء من ١٨٦٨ بزراعة المزارع الواقعة قبالة بودور جنوب كندى (مابين اللَّكّات وبودور) شريطة دفع نفس الضرائب التى يدفعها المزارعون البيضان لأمير الترارزة. ويفيد نفس المرجع [ص: ٤٧ - ٤٨] أن كبير أولئك المزارعين كان يدفع للامير ٣٠ كلغم، فى حين كان على كل رب أسرة دفع مجموعة أخرى من الحقوق. ويعطي بولى (ص ٢٣) توضيحات اكثر دقة عن حجم وطريقة جباية تلك الضريبة على مزارعي الضفة اليسرى للنهر حيث اختلفت من قرية الى اخرى. ففي حين كان مزارعو قرية M'Diangué يدفعون جملة ٤٠٠ ماته (٢٠,٠٠٠ كلغم) من الزرع لاهل التونسي وأهل الشرغي، كانت تلك الضريبة تسدد عن كل حقل في المنطقة الممتدة من Richard Toll الى Guidakar حيث كان على رب كل حقل دفع ٥٠ كلغم عن نفسه و٢٥ كلغم عن كل فرد من اسرته تجاوز العاشرة من العمر.

ومع أن التباين فى تقديرات حجم اباخ مدعاة للتساؤل عن مدى وحدة حجم تلك الضريبة على المزارعين وأسباب اختلافها - إذا كان هناك اختلاف فعلا - فإننا نرجح رأي باكّا لأن «أهل مكة أدرى بشعابها».

ويقال بأن هذه الضريبة كانت فى الاصل من اختصاص الامير ثم وزعت على الاسر الاميرية والزبناء السياسيين والمستشارين - شأنها فى ذلك شأن معظم الضرائب الاخرى - بحيث أصبحت كل قبيلة - بل وأسرة - من الترارزة تعرف الحرث الذى تأخذ عليه اباخ. ويبدو، مع ذلك، أن الامراء ظلوا يتصرفون بشأنها تصرف المالك فى ملكه كما رأينا قبل حين وكما كانت الحال بالنسبة لأحمد سالم ولد اعلى الذى كافأ ملك والو (Yamar M'Bodj) وأتباعه - الذين حاربوا إلى جانبه لانتزاع الامارة من عمه أعمر سالم بن محمد الحبيب (ت: ١٨٩٣) - بمنحهم حق زراعة الأراضي الطمية الممتدة على الضفة اليمنى للنهر من Marigot des Maringuoins (آوليك) إلى دار السلامة بموجب اتفاقية ٢٥ / ٥/ ١٨٩٢ المجددة فى ١٠/ ٩/ ١٨٩٤ و٢٩/ ٧/ ١٨٩٥ شريطة دفع ضريبة «اباخ» والعودة إلى الضفة اليسرى بعد انتهاء الموسم الزراعي (J. O. du Sénégal,23 Sept. 1894 et 29 Juillet 1895; Marty: 1919, P. 135).

وهذا الحرص على جباية اباخ ممن يزرع منطقة شمامه حيث كان، نجده عند مختلف أمراء الترارزة فى القرن ١٩ إلى حد جعل اعلى ولد محمد الحبيب يؤكد لوالى سنت الويس تلك الحقيقة انطلاقا من حرصه على تأكيد سيادته على الضفة اليمنى ومعاملة الفرنسيين واتباعهم بالمثل فيقول: «... إن من حرث فى هذه الحاشية [الضفة] لابد من القبض منه، كما أن من حرث فى حاشيتكم منا كذلك...» (9G1: ch. 1).

وكانت ضريبة «اباخ» تدر كميات كبيرة من المنتجات الزراعية سنويا على الترارزة، قدرها جورج Poulet (١٩٠٤: ٢٣) بـ ٦٣٢٥٠ كلغم بالنسبة لست قرى فقط على الضفتين اليسرى واليمنى، فى حين قال مارتى (١٩١٩: ٣٢٦) بأن الادارة الفرنسية قد جبت لصالح «السلطة الاميرية» التروزية من بعض مزارع شمامة ٣١٢٠٠ كلغم بموجب توجيهات المفوض العام للحكومة فى ٢٠ يناير ١٩١٠.

وإذا كانت تلك الضريبة قد ألغيت فى البراكنة فى بداية الحضور الاستعماري [١٩٠٥]، فإن العمل بها فى الترارزة قد استمر حتى افتدتها السلطة الفرنسية فى المستعمرة سنة ١٩٣٩ بمبلغ ١٣٣٠٠٠ فرنك تشجيعا للزراعة.

لكلمة «قبالة» العربية التى صحفت فى اللغة الفرنسية إلى gabelle وكانت تعبر عن نوع من الضرائب يجبى على الملح. ومهما كان أصلها اللغوي فهي عبارة عن اتاوة تجبى على منجم الملح فى أوليل من جهة وعلى السفن التجارية الاوربية من جهة أخرى. ويختص بها الامير ويقسمها كيف شاء.

ويسميها الاوربيون فى أدبياتهم «بالعادة» (Coutumes)وقد تزامن هذا النوع من الضرائب ـ على ما يبدو ـ مع الحضور الاوربي على سواحل المنطقة حيث كان الاوروبيون حريصين على إيجاد شركاء مسؤولين قادرين على ضمان أمن واستمرار المبادلات التجارية التى كان العلك يشكل مادتها الاساسية فى منطقة الترارزة.

وهكذا ربطوا علاقات مع أمراء الترارزة بوصفهم الاسياد السياسيين على مراكز التبادل ـ الاطلسية والنهرية ـ ووفر ذلك فرصة جديدة للامراء لتوسيع نطاق نظامهم الضريبي بطريقة مرنة تضمن لهم دخلا سنويا مهما قابلا للزيادة. وقد مكنهم التنافس الاوربي على الاستئثار بتجارة العلك من زيادة حجم تلك الضريبة باستمرار وتوسيع نطاق الاستفادة منها، بفعل تحكمهم السياسي فى مجال التبادل.

وتعود أول إشارة فرنسية إلى العمل بهذه الضريبة إلى جانكيه Janequin الذى جاب نهر السنيغال فى ١٦٣٨ وقال بأن العمل بها شائع أنذاك (١٩٨٠ : ٦٠).

وقدم Lacourbe فى ابريل ١٦٨٦ عرضا عن حجم ما يتلقاه هدّى بن أحمد بن دامان من بضائع مقابلها من قبل الهولنديين، وعن ماقدمه هو نفسه لهدّى وابنه السيِّد بهذا الخصوص فى محاولة لكسب ودهما وصدهما عن التبادل مع الهولنديين (1913: P. 156. et suivantes).

ويستوحى من مرثية ابن رازكه لأعمر آكُجيل وجودها وأهميتها فى عهده [٣٦]. ونجد أول تقنين رسمي لها فى اتفاقية ٢٩ يوليو ١٧١٧ بين خلفه اعلى شنظورة وآندرى برى A.Brüe مدير «شركة السينغال».

وقد تطور حجم تلك الضريبة، ونوعية المواد المكونة لها، ونطاق المستفيدين منها، واكتسبت أهمية بالغة منذ النصف الثانى من القرن ١٨ مع احتلال العلك للصدارة فى اقتصاد منطقة غرب إفريقيا.

كما أصبح لها وزن كبير ودور حاسم ـ أحيانا ـ فى التطور السياسي لامارة الترارزة منذ بداية القرن ١٩، وشكلت مصدرا من مصادر توتر علاقاتها مع السلطات الفرنسية فى سنت الويس حيث كانت ورقة رابحة بيد الولاة يستخدمونها ـ عند الضرورة ـ للضغط على الامراء.

وهكذا شغلت حيزا كبيرا فى مراسلات الامراء والولاة والتقارير الادارية لهؤلاء فى القرن الماضى الذى عرف الكثير من الازمات بين الطرفين. فعندما تندهور العلاقات يجمد الولاة دفع تلك الضريبة للسلطة الاميرية، ويقوم الامراء بدورهم بمنع التبادل فى مجالهم الاميري.

وقد عبر اعلى ولد محمد الحبيب عن تلك الحقيقة بوضوح فى إحدى رسائله إلى والى سنت الويس سنة ١٨٧٦ فقال: «... وكان من قبلنا من أوائل افرانس وأجدادنا إذا منع آمكبل قطعوا طرق التجارة....» (9G2, ch. 12).

وكان حجم تلك الضريبة يحدد فى كل مرة وفق اتفاق بين الطرفين كشرط للشروع فى التبادل، دونما اعتبار لحجمه وقيمته التى هي من اختصاص تجار العلك ولادخل للامير فيها. وبما أن ميزان القوى كان راجحا لصالح الترارزة قبل النصف الثانى من القرن ١٩، فإن حجم آمكبل ظل فى ازدياد مستمر حتى ضاق به الولاة والتجار الفرنسيون ذرعا وبذلوا جهودا مضنية حتى تمكنوا من القضاء عليه عند ما رجح ميزان القوى لصالحهم فى المنطقة. وهكذا ألغوه فى اتفاقية ٢٠ مايو ١٨٥٨، التى كرست تفوقهم السياسي وقننت شروطهم للسلام مع محمد الحبيب، وأحلوا محله نسبة ٣٪ مما يشترونه من المنطقة قبل أن يقضوا عليه نهائيا مع إلغاء [illegible]

٢ـ٢ : ضرائب السيادة على البشر:

تمثل هذه الضرائب ركيزة أساسية من ركائز النظام الضريبي التروزي بوصفها التعبير المادي عن التفاوت الاجتماعي البيضاني ورمز سيادة الامارة على اتباعها وحمييها فى مجالها الترابي، وتشكل جزءا مهما من «مال السروال الابيض»، رمز السلطة الاميرية الفعلي. ومن أهم تلك الضرائب الموظفة على الاتباع «الحرمة»، و«الزعامة» والضرائب المختلفة على ايمراكّن، وبما أن هذه الضرائب قد عولجت أكثر من مرة [٣٧] فسنعرض لها باختصار شديد.

ـ الحرمة (لغرامة) : تعرف هذه الضريبة المجباة على الاتباع من اللحمة (ازناكّن) فى الاصطلاح السياسي المحلي بهذين الاسمين البالغي الدلالة. فإذا كانت الحرمة تحيل دلاليا إلى الحماية، فإن الغرامة تحمل معنى الخضوع والاكراه. ويعطي الاسمان نفس المعنى الاصطلاحي ويحيلان على أصل تلك الضريبة الاشتقاقي: فالمجموعة العاجزة عن حماية نفسها بحد السيف أو بالقلم تجد نفسها مضطرة للاحتماء بإحدى الاورستقراطيين ـ ولاسيما الحسانية ـ ودفع عربون تلك الحماية، ذلك العربون الذى أخذ مع الزمن طابع غرامة إلزامية على الفئة التابعة فاكتسب شرعية عرفية. وتعتبر الحرمة مماثلة «لحق الخاوة» الذى كان سائدا فى شبه الجزيرة العربية حتى قيام الدولة السعودية.

وكانت هذه الضريبة تجبى سنويا مع بداية موسم الخريف على الاتباع، وتتمثل فى لبن ناقة على كل خيمة من أهل الابل، ولبن بقرة على كل خيمة من أهل البقر، وشاة ذبيحة «وافليج» من الصوف على أهل الغنم. وفى حالة انعدام الحلائب ـ التي تعاد لأصحابها بعد انتهاء حلابها ـ يدفع الغارم حرمته غنما (١٠ نعاج) أو قماشا (١٠ بيصات للناقة و٥ بيصات للبقرة) أو أدوات حرفية ومنتجات محلية. . . .

ولايتحمل هذه الغرامة إلا التابع أو أبنائه الذكور البالغين المتميزين اجتماعيا، كما لاتدفع إلا للسيد أو أبنائه الذكور الذين يرثون التابع إذا لم يترك عقبا ذكرا؛ وهي فى كلتا الحالتين خاضعة لخط النسب الابوي السائد فى هذا المجتمع.

وتتألف هذه الحرمة من مستويات ثلاث لكل منها دلالته الخاصة، وهي:

*) «حرمة اجدر»: التى يدفعها ازناكّن التابعين تبعية فعلية لأسيادهم الحسانيين، وتدفعها كل أسرة سنويا لسيد مقابل حمايتها وصيانة ممتلكاتها، وهي أكثر الحرم شيوعا وأهمية.

*) «حرمة التمجارت»: وتدفع لأحد الاسياد الحسانيين للتأمين المؤقت من النهب، وحجمها ضئيل يتراوح بين «بيصة» إلى «بيصتين» للمجموعة القبلية أو البشرية الخارجة مؤقتا عن المجال الترابي والبشري لحماتها الاصليين (حرمة اجدر). فقد كان المزازكّن مثلا يدفعون «حرمة اجدر» «للعب» و«حرمة التمجارت» لأولاد اللب وأهل المعيوف، فى حين كان مختلف اتباع أولاد احمد بن دامان الذين يدفعون حرمة اجدر لأسر تروزية مختلفة يدفعون «حرمة التمجارت» للامير لتأمين أنفسهم وأموالهم من النهب إبان صراعات أولاد احمد من دامان الداخلية المتكررة. وإذا لم يقم الحساني بواجب الحماية فى مجاله الترابي والبشري فإن «حرمة التمجارت» تصبح لاغية.

*) «حرمة ازريبه» وهي ضريبة سيادة من اختصاص الامير تجبى من القبيلة جملة ولادخل للسلطة الجابية فى توزيعها على تلك القبيلة. وتدر هذه الضريبة دخلا مهما للسلطة الاميرية حيث يذكر جيرار (Gerhardt : 1911, P 480) أن أولاد عايد ـ مثلا ـ كانوا يدفعون ١٠٠ بيصة مقابل حرمة ازريبه، فى حين كان المرادين يدفعون ما يربو على المائة بيصة.

وهكذا فإن الحرمة كانت من أكثر الضرائب فوائد على السلطة الحسانية لما توفره لها من وسائل عيش أساسية وما تمتاز به من تنوع يجعل من السهل تكييفها مع المتطلبات المستجدة.

يضاف إلى ذلك إمكانية بيع المغرم بالنسبة للحساني إذا دعت الحاجه إلى ذلك، وحق الغارم في فداء نفسه من سيده إذا توفرت له الامكانات والرغبة في ذلك. ومن هنا شاعت في المنطقة منذ القرن ١٨ ظاهرة الفداء وعرفت انتشارا لم يسبق له مثيل في القرن ١٩ كما برهنت على ذلك عشرات وثائق الفداء الموجودة بحوزتنا والتحريات الاولية لبعض طلابنا في السنوات الثلاث الماضية [٣٨].

وكانت ضريبة الحرمة هذه آخر ضريبة افتدتها السلطة الاستعمارية في المنطقة عامي ١٩٤٦ (عام لفدة) و١٩٤٧ بعد سلسلة من المناورات والضغوط على السادة الحسانيين [٣٩]. ويعكس سجل فدآت إقامة المذرذرة وحدها ـ الذي أطلعنا عليه بفضل زميلنا عبد الودود ولد الشيخ وسخائه العلمي المألوف ـ مدى الاهمية العددية والاقتصادية للغارمين في المنطقة، ودرجة استفادة البيت الاميري منهم. وإذا كنا سنعمل على استنطاق هذا السجل في دراسة أخرى، فإن بعض معطياته الكمية تدعم ما ذهبنا إليه.

فقد اشتمل الجزء المقروء من هذا السجل على أسماء ١٩ فاديا منهم ٤ من البيت الاميري استحوذوا على ٢٧ فداء [من أصل ١٠٩] كلفت ١٢٥ ٩٦ فرنك وخمسة عشر ناقة و١١ بقرة و١٩١ نعجة وحمار واحد، وهو ما يمثل نسبة ٠٧ ,٦٦٪ من قيمة مجموع الفدآت..

ـ **الزعامة أوالمعونة**: تشبه هذه الضريبة إلى حد كبير المداراة التي عانت منها المنطقة مع بداية الحضور الحساني فيها، وشغلت خلال القرون الثلاثة الماضية بال الكثير من الفقهاء في عموم البلاد.

وتؤخذ هذه الضريبة من الجميع في أوقات الضائقة المالية أو بمناسبة النفقات الكبرى من حروب أو شراء فرس أو قضاء دين كبير أو استقبال ضيف عظيم.... وكان أمراء الترارزة يتفادون أخذها من القبائل الزاوية ذات المكانة الاجتماعية المتميزة والاورستقراطية التروزية، مع إمكانية أخذها من الجميع مبدئيا. وكانت تتراوح بين ٢٠ إلى ٤٠ بيصة أو جملا حسب القبائل، وألغيت مع ظهور النظام الضريبي الاستعماري (J. Hornac : 1953, P. 12).

ـ **ضرائب إيمراكْن**: كانت هذه المجموعة الحرفية خاضعة لمجموعة لامتناهية من الضرائب منها ماهو مماثل للضرائب الموظفة على غيرهم من الاتباع، ومنها ماهو خاص بهم مثل «التغدة» في نوامغار و«التجكريت» فيما عداه من الساحل لدخول الماء، وهي في الاصل من اختصاص الامير وتتمثل في سمكة يومية عن كل فرد، و«لبست سدوم» و«شراب الحاسي»...

وقد افتدت السلطات الفرنسية تلك الضرائب على ٤ مراحل كانت أولاها في ١٩١٧ وآخرها وأكثرها شمولا في مارس ١٩٤٧ وكلفت وحدها ٠٠٠ ,١٥٠ فرنك [٣٠].

والملفت للانتباه في النظام الضريبي التروزي المتناول أعلاه هو تجذره في الواقع الاجتماعي، وتعبيره عن طبيعة السيادة السياسية في المنطقة وتنوع أشكال ضرائبه، ومرونته شكلا ومضمونا. فقد كان باستطاعة الامراء التخلي عن هذه الضريبة أو تلك أو زيادة ونقص حجمها عند الضرورة بل وإحداث ضرائب جديدة كما كانت الحال في «مائة الضمانة» (التوانين) التي رأينا عند اعلي ولد محمد الحبيب للقضاء على الفتن وسفك الدماء....

والآن وقد أشرف هذا العرض عن إمارة الترارزة ومجالها الاميري على نهايته، أعتقد أن من حقنا القول بأن تلك السلطة الاميرية كان لها مجالها الترابي المحدد نسبيا، وتمارس عليه ـ رغم هشاشة بنيتها التنظيمية والقانونية ـ صلاحياتها السياسية ورقابتها «الادارية» كما اتضح من استعراضنا لتصورها لمجالها ونظامها الجبائي المرتبطين بشكل وثيق بواقع المنطقة الطبيعي وبظروف حياة الناس الاجتماعية فيها، بحيث كانت طرق الرقابة على المجال نابعة من طرق تنظيم المجتمع القبلية والامومية، بصورة عامة.

القبائل الزاوية التى تملك الاراضى ملكية عقارية فعلية وتنظر للمجال وطرق استغلاله ـ التى لها هي الاخرى طرق تنظيمها وتسييرها التى تتطلب بحثا مستقلا.

الهوامش:

١) لقد تصدى لتلك الاطروحات بوجه عام، وأطروحات روبير مونتاي وكْلنير. . . بوجه خاص على الساحة المغاربية كل من عبد الله الحمودي (١٩٧٤)، وعبد الله العروى (١٩٧٧)، وليليا بنسالم (١٩٨٢)، والمختار الهراس (١٩٨٥)، وبول باسكون (١٩٨٥)، وغيرهم كثيرون، فى حين تصدى لها على الساحة الموريتانية بشكل أخص بيريونت (١٩٧٩ و١٩٨٢) وعبد الودود ولد الشيخ (١٩٨٥) الذى أظهر عجزها عن فهم آليات السلطة فى موريتانيا الامس وتفسيرها تفسيرا صحيحا.

٢) نسبة لمغفر بن أودي بن حسان الجد الجامع للقبائل المعقلية التى تحكمت عسكريا فى معظم المجال الموريتاني الحالي وأقامت فيه سلطا سياسية جهوية شبه مركزية (الامارات).

٣) راجع عنهم: محمد صالح بن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية فى معرفة الانساب الحسانية، والمختار بن حامدن: حياة موريتانيا ـ ج ١، والنانى بن الحسين: إمارة أولاد امبارك فى الحوض من ١٧١٢ ـ ١٨٤١ (١٩٨٦).

٤) راجع عنها بوجه خاص: ولد حامدن ج ١، بونت (١٩٨١، ١٩٨٢)، وعبد الودود ولد الشيخ (ج ١: ٣١٢ ـ ٣٢٦).

٥) يمكن الرجوع بشأن هذه الامارة إلى: محمد فال ولد بابه (التكملة. . .)، ولد حامدن (ج ١)، عارتى (١٩٢١)، سعد بوه ولد احماده (١٩٨٥)، وولد الشيخ (ج ١: ٢٩٧ ـ ٣١١).

٦) لمزيد من المعلومات عنها يمكن الرجوع إلى: بابه بن الشيخ سيديه (النبذة. . .) آملهات (١٩٣٧) ولد آلى (١٩٨٣)، وعبد الودود ولد الشيخ (ج ١: ٣٢٧ ـ ٣٣٩).

٧) هواويك (أبوبكر) بن أيهم بن الفغ ابهنض بن اكْدام بن يعقوب بن الفغ ابهنض بن مهنض امغرجد بنى ديمانه إحدى القبائل الشمشوية الخمس التى تزعمت حرب شربيه على مستوى الزوايا ـ راجع عنه اليدالي: أمر الولي ناصر الدين، نشر اسماعيل همات (باريس ١٩١١)، ولد السعد (١٩٨٢)، ولد الشيخ (ج ٣).

٨) القبلة: المنطقة الجنوبية الغربية من الاراضى الموريتانية الحالية، وهي فى الاصطلاح التقليدي المنطقة الواقعة بين انكيم شرقا إلى المحيط الاطلسي غربا، ومن تخوم آدرار شمالا إلى نهر السنغال جنوبا.

٩) ذلك ما توحى به مختلف المصادر المحلية والاجنبية المتعلقة بالمنطقة التى اطلعنا عليها، سواء تعلق الامر بالشهادات التاريخية الواعية أو اللاواعية.

١٠) المحضر: إسم يطلق على المخيم الاميري دون سواه من المخيمات البدوية الاخرى فى منطقة التارزة، ويمثل بالنسبة لأولئك البداة الرحل ما تمثله العاصمة السياسية بالنسبة للمجتمعات الحضرية بحكم كونه مركز السلطة السياسية وأحد رموزها الاساسية، وقد أعطانا P. Dubié وصفا طريفا له ولبنيته الداخلية (١٩٥٣: ١٦٢ ـ ١٦٦).

١١) راجع تلك القصة فى «شيم الزوايا» لمحمد اليدالى (مخطوط).

١٢) تم ذلك بموجب اتفاقية ٢٠ دجمبر ١٦٨٧ التى منح بموجبها «السيد بن الامير هدى سلطان. . . المسلمين» حق التبادل فى آركّين للبروسيين، والتى جددها معهم فى ٢٤ يوليو ١٦٩٨ خلفه أعمر آكّجيل بن هدى. راجع بهذا الخصوص: Théodore Monod: 1983 P. 100

١٣) نذكر من تلك الصراعات قتلهم للامير أعمر آكجيل سنة ١٧٠٣ عند آيْليل الواقعة فى تارْكة شمال شرقي نواكشوط الحالية (ولد بابه: ١٩٨٦، ص: ٤٠) وما تلاه من صراعات اعلى شنظورة معهم للثأر لأخيه حيث تحدثت بعض التقارير الفرنسية بالمنطقة عن حرب له معهم فى ١٧١٩ (Col. C6.5 / 30.10.1719) وقالت ان سفره إلى المغرب فى أواخر ١٧١٩ وبداية ١٧٢٠ كان لطلب الدعم العسكري من السلطان مولاي اسماعيل «ضد أولاد ادليم Auladelin والبراكنة Ebraquena» (C6.6 / 4.3.1720).

١٤) راجع رسالة محمد مختار بن عبد الله إلى جماعة بنى يعقوبه التى يقول فيها: «. . . فلما غلب المختار القاضي سأل اعلى شنظورة القاضى فقال له: العسكر لمن؟ فقال: لك بسبب شيخك هذا. فغرب البراكنة إلى تزاكرت وصار أولاد رزك أصحابه كأولاد بوعلى وأولاد بنيوك وأولاد آكشار [هاتان المجموعتان تنتميان للترارزة لا إلى أولاد رزك]، فامسك بعض العسكر وشيع بعضه إلى مراكش. . . ونصبه للقضاء وتحمل اعلى شنظورة بوظيفة جمل وكتب له كاصا فى جميع السفن أي سفن البحر العذب وسفن البحر الملح. . . [و] قال اعلى شنظورة للمختار: الارض أرضك وأنت سيبها فاختر منها ما تحب أن تسكنه تشمشة، فقال له نحن وأنتم نسكن جانب إكيدى. فقال له: اختر لبنى يعقوب منه، فقال اخترت الجهة الغربية، والتى تليها لبنى ديمانه والتى تليها للألفغيين. . .».

١٥) لم نعثر فى الخزانتين العامة والملكية بالرباط على أية معلومات بشأن تلك الرحلة ولا نتائجها ويبقى الامل معقودا على الخزانة الملكية فى مراكش التى لم تفتح بعد للباحثين.

وهناك الرواية المحلية التي يدعمها ما جاء في الوثيقة التي قدمها الوفد الاسباني للمؤتمر السابع «لمعهد الدراسات العليا المغربية» والمنشورة في Hésperis T. XI 1930 والتي جاء في صفحتها ٣١ «أن وجيها من تكنه يدعى الشيخ حمو سعيد الزركي ، جد فروع الزركيين الحاليين ، قد انضم إلى الترارزة لمساعدة الامير اعلى شنظورة ، وأن الزركيين أصبحوا يتلقون على أثر تلك الحملة عددا من الجمال كوظيفة . . . » .

١٦) تراجع بهذا الخصوص وثائق الارشيف الفرنسي مثل :

- COL. C6.6/28.3.1721
- Col.C6.6/24.5.1721
- Col. C6.6/9.5.1722

١٧) اطلق P. David صاحب الرواية بشأن تلك المحطة عليها إسم محطة سيدى احمد (Cydy Hamet) دون أن ينسبه ، إلا أن جملة من المؤشرات التاريخية والجغرافية تحملنا على الاعتقاد بأن الامر قد يتعلق بسيدى احمد بن احمد بن سيره بن الكورى بن اعلى من ساسى الذين كانت فيهم رئاسة أولاد دامان . راجع بشأن المحطة : P. David, 1974: P. 181 وتعليقات A. Delcourt الذى اعتنى بنشر تلك الرحلة ، فى الصفحتين ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

١٨) يقول هذا الزفان الذى لم تحدد المصادر إسمه :

«واد احنينه» مكان دار * إخشوها عرب ازبار
أكلعت كيف اكلعت «زاره» * وانيكراره» و«مليله»
والحسانى لكان شار * خير إواس ذى الحيله

١٩) A. Leriche et Moctar O/ Hamidun: 1948, P. 494

٢٠) راجع بهذا الخصوص :

An. SOM: Sénégal et dépendances IV, carton 16, doss. 16E:
«Note concernant les démêlées qui ont existé entre la colonie du Sénégal et Amar O/ Mokhtar, roi des Maures Trarza, depuis 1819 jusqu'en 1828»

- **G. Hardy:** la mise en valeur du Sénégal de 1817 à 18154/1943
- **B. Barry:** le royaume du Walo 1984, P. 233-252

٢١) نسبة لمحمد بيانه بن اعلى شنظوره بن هدى بن احمد بن دامان ، جد الفرع الثالث من ابناء اعلى شنظوره اللذي لم يتقلد منه احد الامارة ، وان كان له نفوذ قوي على مستوى السلطة الامبرية .

٢٢) نجد ذلك اللقب في الادبيات المحلية كما هي الحال في المقطع التالي من «اتبيدينت اغسرم» المشاد فيها بانتصار اعمر ولد المختار ولد الشرغي (ت : ١٨٢٩م) على خصومه ، عندما يستعرض الشاعر ظروف تولى ذلك الامير لمنصب الامارة في وقت حرج :

. . ڤيظنها أجماع اجماعت الخير
وآعطاتها لك وابكات فايديك
واملكتها مملكة آماجير
تشابهلك واشروطها فيك

(عن محمد بن أحمد سالم بن الميداح : مقابلة بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٨٥ بالرباط) .

وكذلك في الكتابات الفرنسية في اربعينات القرن ١٩ حيث يقول الرائد كاي Caille في دراسة له عن المنطقة تعود الى سنة ١٨٤٣ منشورة في Revue coloniale (1851: 6) بهذا الخصوص ما نصه « . . . فالحكومة أوليغرشيه ، والامراء يحملون لقب آمجار» .

٢٣) راجع قصة حزاز لكروشه عند ابن حامدن : حياة موريتانيا ، ج ١ ص ٤٩ ، وأحمد سالم بن باكا : كتاب تاريخ بلاد الترارزة [مخطوط] .

٢٤) تطلق «خندوسة» اصطلاحا على التكتل السياسي داخل أولاد أحمد بن دامان الذى يضم أهل الشرغي ولد هدى ولد احمد من دامان وأهل التونسي ولد احمد من دامان ، والذى لعب دورا خطيرا فى إمارة الترارزة خلال القرن ١٩ . أما زعماء خندوسة المشار إليهم هنا فهم :

سيدى احمد بن احمد شين بن الشرقي بن هدى ، وسيد احمد بن عثمان بن ابراهيم الخليل بن ببكر سيره بن احمد بن التونسي بن ا اهيم بن احمد بن دامان ، وسيدى احمد بن اعلى خملش بن اعمر بن المختار من البيت الاميري وليس من خندوسة أصلا لكنه تحالف معها فى معارضتها لعمه محمد الحبيب وهاجر معها إلى آدرار

وشيوع العدل فى أرضه (زودنا بهذه المعلومات عن هذا الرجل الاستاذ/ محمذن بن باباه مشكورا).

٢٦) هو الرسول ولد اعلى امبكّى رئيس أهل اسويد الذين هم الفئة الثالثة من الفئات المكونة لايدوعيش [عن محمذن بن باباه].

٢٧) المقصود هنا هو بكار ولد اسويد احمد الذى تولى إمارة تكانت ما بين ١٨٤٠ ـ ١٩٠٥ وكان من كبار الامراء الذين عرفتهم هذه البلاد، ومات فى سبيل الدفاع عنها شاهرا سلاحه فى وجه المستعمر الفرنسي فى ١٩٠٥ بعد أن بلغ من الكبر عتيا.

٢٨) الشيخ : لم نتمكن من معرفة هذا الشخص الذى يبدو أنه من شخصيات إدوعيش المهمة وقتها.

٢٩) سيدى احمد لبات بن محمد بن اسويد احمد (ت. ١٨٩٦) أحد أعيان البيت الاميري الاعيشي، مفاخر سيدى بن محمد الحبيب المتقدم ذكره فى النص السابق.

٣٠) المختار: لعله المختار بن محمد شين الذى قاد الحلف المعارض لتأمر ابن أخيه [اسويد احمد] ونازعه على الامارة.

٣١) كُنار: الاسم الذى يطلقه سكان الضفة اليسرى لنهر السنغال على سكان الزاوية الجنوبية الغربية من بلاد الترارزة الواقعة على الضفة اليمنى للنهر.

٣٢) لبيدات: إحدى المجموعات الحسانية التى تنسبها التقاليد الجنيالوجية المحلية إلى ارميث بن حسان، وتشكل جزءا من المجموعة التروزية فى المنطقة بالمعنى الاصطلاحي، وتستوطن جنوب غربي منطقة الترارزة المعروف فى التقسيم الجغرافي المحلي بمنطقة «برويت».

٣٣) ولد اعمر ولد المختار الذى يعنيه الشاعر هنا هو محمد الحبيب بن اعمر بن المختار أمير الترارزة ما بين ١٨٢٩ ـ ١٨٦٠.

٣٤) راجع بهذا الخصوص: Dubié 1953, P.171.

٣٥) يقول ابن رازكة بهذا الخصوص (الديوان: ١٣٥) ما نصه:

على يده الطولى تقمصت مطرفا * من العز والاثراء ها أنا ساجبه

أيجتمع البحران إلا إذا رسا * سفينٌ مدناةٌ إليه قواربه

يحُكمه ربانه فى نفيسها * ويدعوه فيها يصطفى فيجاوبه

فيصدر ركبا بعد ركب ثقيلةً * بها وهبت تلك اليمينُ ركائبُه

فتبصره غدْبا فراتا غطمطما * يذِل له جفْوُ الأجاج وغاربه

٣٦) لقد تناول تلك لضرائب كل من Gerhart (1911), Marty (1919), Dubié (1953), Hornac (1953)

٣٧) تناول تلك الظاهرة بالنسبة للترارزة محمد بن حامد (١٩٨٧) بصفة جزئية وكرس لها سيدى محمد بن آبه فى ١٩٨٩ مذكرة جيدة بعنوان: ظاهرة الفداء فى منطقة الترارزة خلال القرن ١٩، اعتمد فيها على مصادر أوليه من بينها ١٧٨ وثيقة فداء.

٣٨) راجع هورناك Hornac: (Le Rachat des Hormas au Trarza) ففيه تفصيل واف بشأن أهداف السلطة الاستعمارية من ذلك الفداء والمناورات والضغوط التى مارستها على المعنيين لتمرير قرارها.

٣٩) راجع: Hornac; Op. Cité, P. 39

المصادر والمراجع العربيه .

ابن خلدون [عبد الرحمن]:

المقدمة ـ الدار التونسية للنشر ـ ١٩٨٤، ج ١.

ابن رازكة [سيدى عبد الله]: الديوان ـ تحقيق ودراسة محمد سعيد بن دهاه ـ مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ـ ١٩٨٦.

باب بن الشيخ سيديه: النبذة فى تاريخ إدوعيش ومشظوف [مخطوط]

باكّا [أحمد سالم ولد]: كتاب تاريخ بلاد التارزة [مخطوط].

بكّى [بن سيدى بن حرمه]: فتوى بشأن نازلة طلاق [مخطوط].

بول باسكون: «التجزؤ والتراتب فى المجتمع القروي المغربي» ـ الفكر العربي ٣٧ـ٣٨ مايو ١٩٨٥، ص ص: ٣٣٤ ـ ٣٤٦.

سعدبوه بن احماده: لمحة عن تاريخ إمارة البراكنة فى النصف الثانى من القرن ١٨ المدرسة العليا للاساتذة ١٩٨٥.

الشنقيطي [أحمد بن الامين]: الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ـ مكتبة الخانجى ـ القاهرة، الدار البيضاء، ١٩٥٨.

الشيخ سعد بوه: الاسنه النافذة فى رد البيعة الكاذبة [مخطوط].

الشيخ سيديه بن المختار بن الهيبه: مجموعة من الرسائل إلى أمراء التارزة [مكتبة المرحوم: هارون بن الشيخ سيديه].

الشيخ محمد المامى:

ـ كتاب البادية [مخطوط]

ـ جمان كتاب البادية [مخطوط]

ـ شرح الدلفينية [مخطوط] ـ إدخالات البحر فى الغدير [مخطوط].

المامون بن محمذن الصوفي: الديوان ـ تحقيق محمد بن ابياه، م.ع.أ، ١٩٨٢

محمد بن امينو بن الفرا: الكرشه فى شمائل بنى احمد بن دامان [مخطوط].

محمد فال بن بابه: التكملة فى تاريخ التارزة والبراكنة ـ تحقيق أحمد بن الحسن ـ بيت الحكمة ـ تونس ١٩٨٦.

محمد المختار ولد السعد:

ـ حرب شربيه أو أزمة القرن ١٧ فى الجنوب الغربي الموريتاني، نواكشوط ١٩٨٦.

ـ «عوائق البحث فى التاريخ الموريتاني»، الوسيط، رقم ٢، ١٩٨٨، ص ص ٢٨ـ٤٣. والمقال فى الاصل مساهمة فى ندوة «إعادة» كتابة التاريخ العربي» المنعقدة ببغداد من ٢٧ ـ ٣٠ دجمبر ١٩٨٧.

محمد المختار بن عبد الله: رسالة إلى جماعة بنى يعقوبه [مخطوطة].

محمذن بن احمد بن العاقل: رسالة إلى محمد الحبيب [مخطوط بمكتبة المرحوم حامد بن بيها].

محنض بابه بن اعبيد: النوازل [مخطوط]

المختار بن حامدن: حياة موريتانيا الجزء ١: التاريخ السياسي ـ الجزء ٧: تندغة [مخطوط المعهد الموريتاني للبحث العلمي].

النانى بن الحسين: إمارة أولاد امبارك فى الحوض [١٧١٢ ـ ١٨٤١]. جامعة نواكشوط ـ كلية الأداب والعلوم الانسانية، ١٩٨٦.

الهراس [د. المختار]: «التحليل الانقسامي للبنيات الاجتماعية فى المغرب العربي: حصيلة نقدية». المستقبل العربي ـ السنة ٨، العدد ٧٥ مايو ١٩٨٥ ص ص ٩٦-١١١.

الهرماسى [د محمد عبد الباقى]: المجتمع والدولة فى المغرب العربي ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ١٩٨٧.

اليدالى [محمد بن بن سعيد]:

ـ شيم الزوايا [مخطوط].

ـ رسالة اللفعة [مخطوط].

يعقوب بن يوسف: المضمون السياسي لرسائل الشيخ سيدي الكبير م.ع.أ، ١٩٨٥.

المصادر والمراجع الفرنسية:

I - Document d'archives :

- Archives Nationales Françaises : Col. C.6 (C6.5, C6.6)
- **Archives Nationales S.O.M.** : - Sénégal et dép. I : 15C, 41 B
  - Sénégal et dép. IV Carton 16 dos. 16 E.

- **Archives Nationales de Mauritanie** : Série E1773
- **Archives Nationales du Sénégal** : 9G1, 9G2

II - **Ouvrages** :

1 - **Amilhat (P). 1937** : «Petite chronique des Idou Aich, héritiers guerriers des Almouravides» **Revue d'Etudes Islamiques**, cahier n° 1, P.P. 41 - 130

2 - **Baduel (P.R.), 1985** : «La production de l'espace nationale au Maghreb» in : **Etats, territoires et terroirs au Maghreb.** CNRS Paris P.P. 3 - 47

3 - **Barry Boubacar, 1984** : Le royaume du Walo-Paris, Karthala

4 - **Bensalem (Leila), 1982** : «Intérêt des analyses en terme de segmentarité pour l'étude des sociétés au Magreb» in : **revue de l'occident Musulman et de la méditerranée**, n° 3, P.P. 113-135.

5 - **Bonte (P.), 1979** : «Segmentarité et pouvoir chez les éleveurs nomades sahariens : Elément d'une problématique» in : **production pastorale et société** cambridge university press- M.S.H Paris P.P. 171-199.

1981 b : «La constitution de l'Emirat de l'Adrar : quelques hypothèses provisoires» - in : **Rev. de l'Occ. Mus. et de la Méd.** n° 32, P.P. 37 - 52

1982 : «Tribus, factions et état : Les conflits de succession dans l'Emira de l'Adrar» - in : **Cahiers d'Etudes Africaines**, 87-88, T.XXII, 3 - 4, P.P. 489-516

1983 (Seg) : «L'herbe ou le sol. L'évolution du système foncier pastoral en Mauritanie du Sud Ouest»(Rénéo)

1985 : «Esquisses d'histoire foncière de l'Emirat de l'Adrar» in : **Etats, territoires, et terroirs au Maghreb** - CNRS Paris, P.P.323-345

6 - **Braudel (F), 1969** : Ecrits sur l'histoire - Flammarion, Paris

7 - **Cheruy (L.P.), 1911** : «Rapport sur les droits de propriétés des coladé dans le Chemama : Les redevances anciennes payées, les droits encore acquittés actuellement et le mode d'élection des chefs de terrains» - in : **suppl. J.O. de l'A.O.F.**, n° 52 à 54

8 - **Claval (P), 1978** : Espace et pouvoir - P.U.F. Paris

9 - **Dauphiné (A), 1984** : «Espace terrestre et espace géographique» in : **Les concepts de géographie humaine**, Masson, Paris P.P. 33-44.

10 - **David (P), 1974** : Journal d'un voyage fait en Bambouc en 1744 - Paris - Soc. Franç. d'Hist. d'Out. Mer.

11 - **Delcourt (A), 1952** : La France et les établissements Français au Sénégal entre 1763 - Mém. IFAN, n° 17 - Dakar

12 - **Dubié (P), 1953** : La vie matérielle des Maures, Mém. IFAN, n° 23 Dakar

13 - **Faidherbe (GL), 1899** : Le Sénégal, la France dans l'Afrique Occidentale - Paris Hachette.

14 - **Garnier (J.B.), 1971** : «L'Espace du géographe» in : **la Géographie, méthodes et perspectives** - Masson et Cie, P.P. 55-97.

15 - **Gerhardt (G), 1911** : «Les Trarza, tribus, redevances et classes sociales» in : **Revue du Monde musulman**, TXV, P.P. 453-494.

16 - **Golberry (X), 1802** : Fragmens d'un voyage en afrique fait pendant les années 1785, 1786 et 1787. Paris, Trenttel et Wurtz.

17 - **Al Hammoudi (Abdellah), 1974** : «Segmentarité, stratification sociale, pouvoir politique et sainteté : reflexions sur les thèses de Gelhner» in : **Hespéris - Tamuda**, Vol 15 P.P. 147-180.

18 - **Hardy (G), 1943** : La mise en valeur du Sénégal de 1817.

19 - **Hornac (J) 1953** : Le Rachat des Hormas au Trarza (1946 - 1947) Mémoire CHEAM.

20 - **Jannequin (ch), 1980** : Le voyage de Lybie du royaume du Sénégal Genève - Stlakine.

21 - **La Courbe, 1913** : Premier voyage du sieur de la Courbe fait à la coste d'Afrique en 1685-86, pub. Cultru Fd. E. Champion et E. Larose.

22 - **Laroui (Abdellah), 1977** : Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912) - Paris, Maspero.

23 - **Lefèbvre (H), 1974** : La production de l'espace - Anthropos.

24 - **Leriche (A), 1955** : «Notes sur les classes sociales et sur quelques tribus de Mauritanie» in : **Bull. IFAN**, T XVII, série B P.P. 173-203.

25 - **Leriche et Moctar O. Hamidoun, 1948** : «Notes sur le Trarza : Essai de géographie historique» in : **Bull. IFAN**, série B, TX- P.P. 461-538.

26 - **Marty (P), 1919** : L'Emirat du Trarza - E. Leroux

1921 : Etudes sur l'Islam et les tribues maures : les Brakna - E. Leroux.

27 - **Mercier (P) et G. Blandier (1947)** : «Emancipation par rachat des pêcheurs Imragen» - in : Notes africaines n° 33, P.P. 22-23.

28 - **Monod (Th.), 1983** : L'Ile d'Arguin - Essai historique - Lisboa.

29 - **O. Cheikh (A.W.), 1985** : Nomadisme : Islam et pouvoir politique dans la société Maure précoloniale (XI[e] XIX[e] s). Essai